أن تكون إنساناً

هيفاء بيطار

أن تكون إنساناً

سلسلة شهادات سورية -27- أن تكون إنساناً
هيفاء بيطار

لوحة الغلاف:
جزء من جدارية «خلق آدم» لمايكل آنجلو (michelangelo)

الطبعة الأولى 2018

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت لبنان
هاتف: 750054 1 961 +
فاكس: 750053 1 961 +
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

الإهداء

إلى الشعب السوري الحبيب... يا من نافستم صبر أيوب في التحمّل والقهر وانعدام الحرية. الحق سيحرركم. وستشرق شمس الحرية والكرامة بعد مخاض طويل.

الاعتدال يعني العقاب

دُعيت، منذ أيام، إلى مؤتمر في عاصمة أوروبية، موضوعه (وضع الأقلّيات في العالم العربي). وقد تلقَّيت الدعوة وأنا في باريس قبل عودتي إلى سوريا الحبيبة بيومين، ووافقت على حضور المؤتمر. ثم علمتُ أن إحدى المشاركات في المؤتمر رفضت، بشراسة، حضوري، وقالت إنها ستنسحب من المؤتمر إنْ وجدَت فيه هيفاء بيطار، لأنها تُقيّمني بأنني موالية ومع النظام. في الوقت ذاته كنت أتلقّى عشرات الرسائل الإلكترونية وعشرات الاتصالات من أصدقاء ينصحونني بألا أعود إلى سوريا، وبأن ثمة خطراً كبيراً من اعتقالي، خاصة بعد أن ظهرتُ في برنامج «ثقافة» في تلفزيون (فرانس 24) وتجرّأت وقلت مراراً كلمة «ثورة»، وبعد أن نسيت أن لافتات عملاقة ملأت شوارع اللاذقية تقول (بي بي سي، الجزيرة، العربية، فرانس 24 قنوات سفك الدماء للشعب السوري)، وبعد أن كتبت عدّة مقالات جعلتني وجعلت من يهتمّون لأمري نحبس أنفاسنا ذعراً وتخوّفاً من الاعتقال. لكنني عدت إلى اللاذقية بسلام وأمان، وشعرت بلا مبالغة أن روحي تستقبلني عند مدخل اللاذقية الجميل. أجدني بين فكَّيْ كمّاشة، ككثيرين من المعتدلين مثلي، ككثيرين ممّن ليسوا مع النظام ولا مع

معارضة كهذه، لكنْ، ممنوع عليك أن تكون معتدلاً، أن تكون مع أوجاع الناس والمسحوقين والخاسرين والمتألمين؛ عليك أن تشتم وأن تكون مُتطرّفاً؛ إما بالإفراط في الموالاة للنظام، أو بالإفراط في التماهي مع المعارضة المشرذمة المتشظّية، والتي تنقسم وتتوالى انقساماتها كلَّ فترةٍ، بالسرعة التي تنقسم فيها وحيدات الخلية. هذه الظاهرة من تصنيف الآخر وتقييمه على أساس وحيد: هل أنت موالٍ أم مُعارض للنظام! هذه الظاهرة خطيرة جداً لأنها تلغي أساس التعامل بين الناس، وهو التعامل الإنساني والتعاطف الإنساني، وأكثر ما يؤسفني أن الشريحة المثقفة (ربما تجاوزاً أضطرّ إلى استعمال هذا التعبير) هي من تمارس هذا التصنيف، بعضُها على البعض الآخر، وعلى الآخرين، ويكفي أن أعرض ما تعرّضتُ له وواجهته خلال السنوات الثلاث، منذ اندلاع الثورة في سوريا، حتى أعطي نموذجاً وأدلّ على ذلك النمط المشوه واللامنطقي من التفكير.

أعود إلى تلك المدعوّة إلى مؤتمر الأقليات في العالم العربي، التي ترفض الحضور لأنني سأشارك فيه، ولأنها تنبذني وتحتقرني وترفضني، لأنني –حسب رأيها – موالية للنظام. يا سلام على ذكائها وإنسانيتها! لا أعرف على ماذا استندتْ في تصنيفها لي، لعلّها لم تنقِّب جيداً فيما تعرّضتُ له، ولم تعرف أنني مُنعتُ من السفر في أيلول 2012 لمّا كنت مدعوّة إلى مؤتمر ثقافي في البحرين، وأنني عدت أدراجي من حدود العريضة بين سوريا ولبنان. لعل السيدة العبقرية لم تسمع أن روايتي «هوى»– التي تحولت منذ 4 سنوات إلى فيلم سينمائي – مسجونة في قفص ولم تُعرَض أبداً في سوريا، وأنني استمتُّ لأعرف سبب عدم عرض الفيلم، فلم أحصل على أيّ جواب، في الوقت الذي عُرِضَت فيه أفلام سورية حديثة كفيلم «هوى» المأخوذ عن روايتي.

لعل السيدة المثقفة – التي يُكهرِبُها ويُسمِّمها وجودي – لا تعرف أن برنامجي «نون» في التلفزيون السوري لم يُعرَض أيضاً، على الرغم من أنني سجّلت أكثر من 10 حلقات، ولم أحصل على أيّ جواب لعدم عرضه. ولكن تلك الزميلة اللدودة، التي يمتلئ قلبها بالكره والرفض لي، ليست حالةً خاصّة، بل تشكِّل نموذجاً لنمط من التعامل المخزي بين الناس والمثقفين تحديداً. وما زلت أحتفظ بالرسالة الموغلة في الفحش والشتائم، التي أرسلها لي أحد الصحافيين والشعراء، بعد أن قلت عن أمٍّ تحمل معطف ابنها الملطّخ بدمه الطازج، والذي لم يتخثّر بعد، بأنها أمٌّ ثكلى، وبأنها أمٌّ مفجوعة بابنها، بغضِّ النظر عن أيّ تصنيفٍ آخر، وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا الصحافي نفسه مُصرٌّ على أنها ليست أمّاً، بل حيوانة أرضعت ابنها حليب الإرهاب! وذلك لأن ابنها ينتمي إلى حزب الله. لم يستطع هذا المثقف أن يتعاطف مع تلك الأم المفجوعة بفلذه كبدها. لم يستطع، ولا بأيِّ شكلٍ، أن يتجاوز التصنيف السياسي للناس، ولا أن يرى الجانب الإنساني المُفجع في الصورة. وما أدراه كيف ربّت هذه الأمّ ابنها؟ وهل هناك نوع جديد من الحليب هو حليب الإرهاب! لمجرّد أنني كتبت أنها أمّ ثكلى، صنّفني فوراً بأنني موالية للنظام وانهال عليَّ بشتائم أخجل من ذكرها. يا لإبداعه الشعري! ربما يعتبر تلك الشتائم حداثة شعرية. وتعرّضت للتخوين ولهجوم شرس، لمجرّد أنني كتبت مقالاً عن زياد الرحباني وقلت فيه إنه قامة فنّيّة عالية وعبقريّ، وإنه من المعيب شتمه وتخوينه بسبب مواقفه السياسية، فهو حرٌّ بمواقفه وكلّ إنسانٍ حرّ بمواقفه. ويمكنني ذكر مئات الأمثلة عن نموذج التفكير المريض المُتعصّب، الذي يُقيّم الناس على أساسه: هل أنت موالٍ أم معارض؟! لا أحد يُصنّف الآخر: هل أنت إنساني؟ هل أنت متعاطف مع أخيك الإنسان المفجوع مثلك،

الخاسر مثلك، المتألّم مثلك، الباحث عن الحرية والكرامة مثلك، الذي دفن ابنه مثلك، سواء كان ابنه من جيش النظام أم من الجيش الحر؟ هل أنسى قول أحد المعارضين إنه يتمنّى أن ينبش قبور جنود الجيش العربي السوري ليبول فوقها! أخرسني تعليقه، جمّد الدم في عروقي، لأنه أكد لي أن التعاطف الإنساني بين البشر قد انقرض. أليس كلّ شابٍّ في سوريا يخدم الجندية؟ هل يملك هذا الشاب قرار مصيره بيده؟ هل يتمنى الموت؟

لعل التعبير الأدقّ عن هذه المرحلة أنّها مرحلة التخوين وخيانة الأصدقاء وتشويه كل ما هو إنساني ومعتدل، كما لو أنه ممنوع أن تكون معتدلاً، بل يجب أن تصرخ وتشتم طوال الوقت كي تكون معارضاً لامعاً يستقبلك مثلاً رئيس جمهورية فرنسا هولاند، ويقول لك إنك أهمّ كاتبٍ أو أهمّ كاتبة؟ عندئذٍ تنتفخ كالطاووس وتظن أن الله خلقك وكسر القالب. أو أن تكون مفرطاً في الولاء للنظام وتقول إن كل ما يجري على الأرض مؤامرة، وإن كلّ الفساد المريع، وخاصة فساد القضاء، وكل الانتهاكات التي تحصل منذ أكثر من أربعة عقود ما هي إلا أخطاء وخروقات تحصل في كل المجتمعات، وفي أمريكا بالذات، كما لو أن أمريكا هي وحدة القياس. كيف يمكن لمذيع في التلفزيون السوري أن يتغنّى بحلب وقلعتها ويقول: ابتسم أنت في حلب! في الوقت الذي تنهمر البراميل المتفجرة فوقها؟! أيّ كلام يثير الغثيان والقرف هذا؟ أيّ استخفاف واحتقار لآلام الناس ومشاعرهم، وفي اللاذقية وحدها أكثر من مليون وثلاثمئة ألف نازح من حلب وريفها! لقد بلغ التشوّه في التفكير حدّاً أن الكثيرين اتهموني بأنني أكتب مقالاتٍ كهذه لغاية أن أُعتقَل! وحين أُعتقَل تزداد شهرتي! يا سلام على شهرة كهذه تأتي من الاعتقال! أعمى الحقدُ هؤلاء ولم

يقدِروا أن يجدوا الجانب الإنساني فيما أكتب، ولم يسعفهم تفكيرهم الحاقد المريض في الفهم البسيط الواضح وضوح الشمس لكل ما أكتبه، وهو وجع الإنسان السوري الذي يتوق إلى الحرية والكرامة؛ بل أسقطوا مشاعرهم المشوهة المريضة على كتاباتي، واعتبروها لغاية الاعتقال الذي يُفضي إلى الشهرة! ويحضرني مقال كتبته زميلة غمزت فيه أنني أصدرت كتابي «وجوه من سوريا» لغاية الشهرة فقط، وأن كلّ الشخصيات، التي تركت أسماءها كما هي في الكتاب لأحافظ على طهارة الحقيقة وطهارة الألم والدم السوري، كلّ تلك الشخصيات كتبت عنها بأسمائها، لا لأنني أريد أن أكرمها وأجسّد مأساتها، بل لأمتطيها من أجل الشهرة. كما لو أنني مبتدئة في الكتابة، كما لو أنه ليس لدي أكثر من ثلاثين كتاباً بين قصة ورواية، طُبعت مراراً وحصد بعضها جوائز مهمّة.

يؤلمني ويُشعرني بالخزي الشديد ذلك التشوه الفظيع في التفكير وفي تعامل البعض مع الآخر، في تغييب الجانب الإنساني الذي هو أساس التعامل بين البشر، وفي انقراض ما يسمى التعاطف والرحمة والإنسانية، فيصير الآخر إما عدواً يجب سحقه، أو صديقاً بمعنى أن يعلن الطاعة والولاء التام لكل ما أفكر فيه. وإذا تجرّأ وانتقد أو شكّك، أرفسه من دون رحمه وأشتمه بتهمة العدوّ والموالي. عليك أن تكون شبّيحاً أو دبّيحاً (من الذبح)، أما أن تكون إنساناً، فذلك فممنوع. إن كنت عطوفاً وإنسانياً ومعتدلاً فأنت خائن وتستحق النبذ والشتم، ويطالب الكثيرون بألا تُدعى إلى مؤتمرات ودعوات، كما حصل حين سُحبت مني الدعوة إلى مؤتمر الدوحة، لأن المسؤولين عن المؤتمر تشاجروا حول تصنيفي!! ولم تشفع لي كتبي الثلاثون في ترسيخ هويتي الحقيقية بالنسبة إليهم. كل كتبي لم تشفع لي، لأنهم يصنّفونني

ويصنفون الجميع على مبدأ: هل فلان مُعارض أم موالٍ؟ فالموالون يجب أن يُدعوا إلى مؤتمرات في روسيا وإيران، والمعارضون يجب أن يُدعوا إلى مؤتمرات في باريس ولندن وواشنطن. وليذهب الأدب إلى الجحيم وليذهب الإبداع إلى الجحيم! فعلاً، شرُّ البلية ما يضحك. أن تكون مُعتدلاً وإنسانياً في هذا الزمن المجنون المُلتهب بالأحقاد يعني أن تُعاقَب.

أبناء حلب الشهباء

أكثر من مليونٍ ونصف مليون نازح، معظمهم من ريف حلب، نزحوا إلى اللاذقية، تشعر كلّما التقيت بأحد منهم أنه نجا من الموت. أسمّيهم في سرّي «الناجين من الموت» بالبراميل المتفجرة والصواريخ وأنواع عديدة من أدوات الموت. وعلى مدى عامين، كنت أتأمّل وجوه هؤلاء النازحين كأنني أحاول أن أحلّ لغزاً، أن أكتشف أيّة متانةٍ روحية عظيمة يتمتّعون بها حتى استطاعوا أن يتأقلموا في عيشٍ غريب عن عيشهم في حلب تماماً، وبكلّ نزاهة، فإن النازحين من حلب أعطوا روحاً جديدة للّاذقية، حتى أنه يمكنني القول إن اللاذقية انتعشت اقتصادياً بوجود أهل حلب، إذ يمكنك وأنت تمشي في شوارع اللاذقية أن تقف أمام بسطة عليها بضائع مغرية؛ الزعتر الحلبي والبهارات والزبيب واللوز والجوز، وتكتشف أن صاحب البسطة كان لديه عدّة محلات أو مستودعات في سوق المدينة، وقد دُمِّرت كلّياً وسوِّيَت بالأرض! تتعجّب كيف لا يزال هذا الرجل (البائع) قادراً على الابتسام، وعلى الكلام، وكيف يراعيك في السعر! جمعتني صداقة مع العديد من الحلبيين الذين صرت لا أشتري إلا من دكاكينهم أو بسطاتهم، أستمع إلى قصصهم كما لو أنني أحضر فيلماً درامياً، أحدهم رأى منزله حطاماً

وابنه مات تحت الأنقاض، لم أستطع أن أمنع نفسي عن سؤاله: كيف تحتمل كلّ هذا القهر؟ كيف لم تفقد عقلك؟ ابتسم وهو يقول: ممنوع على الأب أن ينهار! وأنا أبٌ لثلاثة أطفال لا يزالون على قيد الحياة. بقيت أياماً مسكونة بعبارته: ممنوع على الأب أن ينهار! أتجوّل في شوارع اللاذقية، أجد المئات يقفون في طابور، في انتظار المعونات الغذائية أو الطبية؛ نساء صابرات يحيط بهنّ أطفالٌ تعكس عيونهم حزناً أقرب إلى الذهول، لا يستوعب عقلهم الطفولي لماذا قدرهم أن تُنتهك طفولتهم وبراءتهم، لا يستوعب عقلهم لماذا يقفون في طابور لساعاتٍ، في انتظار زجاجة زيت نباتي وكيس حليب مُجفّف، وفي أحسن الأحوال بطّانية، بدلاً من أن يلعبوا في باحة المدرسة أو حديقة السبيل الفاتنة. لا يعرف أطفال حلب الشهباء أن يعبّروا عن مشاعرهم بالقهر والأذى العميق لأنهم نزحوا من حلب، لأن معظمهم شهد أفظع الجرائم ورأى حمم السماء تُمطر ناراً ورصاصاً وبراميل ربما اعتقدوا للوهلة الأولى أنها حين تنفجر سيصفّقون فرحاً، كما يفعلون حين يتفرجون على الألعاب النارية، لكنهم لا يصفقون، لأن الذعر يجمّدهم ويُخرسهم. أطفال حلب الذين لا يعرفون أنهم قُدِّموا قرابين للشيطان، كغيرهم من أطفال سوريا أيضاً. أيّ عارٍ أن تجد طابوراً من الأطفال النازحين يقفون أمام الفرن لساعات، لا ليشتروا حاجتهم من الخبز فقط، بل ليشتروا الكثير من الأرغفة، ثم يفرشونها بأيديهم البضّة على الرصيف، أو على سطوح السيارات، ويعبّئونها في أكياس ويبيعونها للناس ليربحوا بضع ليرات. هكذا يتعلم الأطفال النازحون الحساب. من يبالي بطفل التفّاح؟! الصبيّ ابن السنوات العشر، رثّ الهيئة، الذي يفترش ركناً في شارع 8 آذار في مركز اللاذقية، وبجانبه صينيّة عليها أكوام من التفّاح المصبوغ بالسكر الأحمر، تفاح متعفّن

كحياته، ولكنه يريد أن يبيعه، وهو لا يردّ على أيّ سؤال توجّهه إليه، ولا يكترث للمارة الذين يتصدّقون عليه بالقليل من المال. لا ينظر إليهم، ولا يردّ على أسئلتهم مهما ألحّوا أو مهما حاولوا إغواءه بالمال. صبيّ التفاح فقدَ أسرته كلّها في ريف حلب، ولم يفهم أيّة حكمةٍ في بقائه وحده على قيد الحياة وإخوته ووالداه قد ماتوا! صبيّ التفاح مُروّع من هول مأساته، يسكن الذهول ولا أحد يهتم به، حتى أنه تحول إلى جزء من المشهد. وبينه وبين صور مئات النعيات لشبّان سوريين ماتوا وتحوّلوا بغمضة عين إلى شهداء أبطال، بينه وبينهم شبر، بلحظة يمكن أن يتحول طفل التفاح إلى ورقة نعي، لا شيء يزدهر في سوريا سوى طباعة أوراق النعي. الحمد لله أن الحبر متوفر والآلات الطابعة تعمل غير مبالية بانقطاع الكهرباء، لأن عدّاد الموت الذي يُشغّلها لا يتعطّل لحظة. مئات الآلاف من النازحين الحلبيين يعيشون في اللاذقية بقوّة أرواحهم، بإرادة العيش الكريم، وكلّ منهم يؤمن بما قاله لي الأب المفجوع: ممنوع على الأب أن ينهار؛ هذا شعار كل سوري لا يزال على قيد الحياة. إنه يأمل ألا يفقد عقله من هول الإجرام والخسائر، من هول الألم. النزوح من أصعب آلام العالم، لأن الأمكنة أرواح. لا تجد حلبياً يتحدث إلا ويقول: أبوس روحك يا حلب! عبارة بليغة تدلّ كم هي عظيمة وشامخة وحرة روح حلب، حلب الشهباء التي وشمت أرواح أبنائها بعظمتها وشموخها، حلب الفن الأصيل والطرب الأصيل. أهالي حلب الذين وهبوا اللاذقية روحاً جديدة وازدهاراً وحيوية، لا يستطيع إلا أبناء حلب الشهباء أن يقدّموها لإخوتهم في اللاذقية. هل من عبارة أكثر بلاغة وصدقاً من عبارة: أبوس روحك يا حلب؟

أبناء سجناء الرأي

لطالما استوقفني الجيل الثاني المنبثق من الجيل الأول، أيّ الآباء، ليس أيّ آباء، بل سجناء الرأي في سوريا، وخاصة في فترة الثمانينيات والتسعينيات. معظم هؤلاء الآباء سجناء الرأي – سواء كانوا من «رابطة العمل الشيوعي»، أو متّهمين بانضمامهم إلى الإخوان المسلمين، وغيرها من التهم التي لم أحفظ ربعها – كانوا متزوجين حديثاً وفي شهر العسل الذي انقلب بلمح البصر إلى شهر العلقم، وكنت شاهدة على حياتهم وحياة أسرهم، بحكم الصداقة العميقة بيننا؛ ومعظم هؤلاء كانت زوجاتهم حوامل بالطفل الأول أو حديثة الإنجاب ولا تزال في طور النفاس. انقضّت المصيبة على أسر أصدقائي سجناء الرأي، وشُحِطوا إلى السجن لفتراتٍ تراوحت بين عشرة أعوام إلى خمسة عشر عاماً، وبدأ جيل الأبناء الأول يعيش دون أب، بل لا يفهم معنى الأب، ولا يعرفه إلا كصورة بالأبيض والأسود معلّقة على الجدار. والأكثر غرابة وألماً أن تلك النسوة (زوجات سجناء الرأي) لم يتلقّين التعاطف بالحدّ الأدنى من الجوار، سواء الأهل أو الأقرباء، بل إن إحدى القريبات سخرت من قريبتها التي سُجن زوجها بتهمة الدفاع عن حقوق الإنسان، وقالت لها شبه شامتة وشبه ساخرة: هل

زوجك عاقل حتى يتحدّى قائد الوطن؟ أكيد إما فقد عقله أو معتوه! ولم يكن بنظر تلك المرأة احتمالٌ ثالث بأنه يدافع عن حقوق الإنسان. طوال تلك السنوات الطويلة عاشت أسر سجناء الرأي مبتورة محرومة من الأب، وحين أذنت السلطة للزوجات – بعد سنوات من سجن أزواجهن – بزيارة أزواجهنّ، سواء كانوا في سجن عدرا أو صيدنايا أو تدمر، اصطحبوا معهن أطفالهن، ليتعرف هؤلاء الأطفال لأول مرة على من يُسمّى أباً، وليروه من خلال القضبان يبتسم لهم وعيونه تشعّ بالشوق والمحبة، وليقدّم له هدية نحتها من قطعة خشبٍ أو موادّ بسيطة تتوفر في السجن. كانت تلك الزيارات القصيرة، المتباعدة والخاطفة، لآباء وراء القضبان، تترك آثاراً نفسية كارثية عند هؤلاء الأطفال، حتى أن أحدهم أخفى في جيبه سكّيناً حتى يحين موعد الزيارة الثانية، ليقطع بها الأسلاك والشبك المعدني الذي يفصله عن والده. كنت مقرّبة جداً من أصدقائي، تحديداً زوجات سجناء الرأي اللاتي تحمّلن مسؤولية تربية أطفالهن، وابتدعن حججاً وذرائع عديدة لتبرير غياب الأب، تلك الحجج والذرائع لم يصدّقها الأبناء، بل كانوا يسخرون من أمهاتهم سرّاً؛ فالطفل لا يمكن خداعه والكذب عليه. وكانوا يتحمّلون بألم وكبرياء سخرية بعض زملائهم في المدرسة من قبيل أنهم أبناء مساجين وأن (الحبس للرجال)، يقولها هؤلاء الأطفال المتنمّرون بسخرية وتعمّد لإهانة زملائهم، وهم بالتأكيد متأثّرون بنصائح أهلهم، بوجوب الابتعاد عن أبناء سجناء الرأي كما لو أنهم وباء. اضطررت إلى استعراض تلك القصة لأن أصدقائي، حين خرجوا من السجن، لم يجدوا سوى مزيد من التحقير والتهميش من قبل السلطة، فهم محرومون من العودة إلى الوظيفة، ولا يُعطون براءة ذمة، ولا يُمنَحون جواز سفر، ولا توجد أيّة جهة تتعاطف معهم وتوظّفهم، إضافة إلى

أنهم محرومون من السفر! أي أن التحقير والعقوبات مستمرة حتى بعد خروجهم من السجن، وبعضهم كانت نتيجة محاكمتهم: براءة! أي بعبارة أخرى: «لا تواخذنا، سرقنا من عمرك عشر سنوات أو خمس عشرة سنة وطلعت بريء»!! معظم هؤلاء أنجبوا طفلاً بعد خروجهم من السجن، وهكذا فإن القاسم المشترك الأعظم لأصدقائي الكثر – سجناء الرأي – هو وجود ابن قبل السجن، وابن بعده، وكان شعور معظم أولاد الجيل الأول قبل السجن بأن الطفل الثاني أشبه بابن لهم أكثر مما هو أخ!

مع بداية الثورة السورية دبّت الحماسة مجدّداً في جيل أصدقائي سجناء الرأي، وآمنوا بأن أوان التغيير قد حان، وبأنهم لم يُسجَنوا عبثاً، بل لإيمانهم العميق بالحرية والعدالة والكرامة، تلك الثلاثية المفقودة في سوريا، واعتقدوا بأن دورهم قد حان ليساهموا يداً بيد مع كل السوريين، بكلّ طوائفهم وانتماءاتهم، في نقل سوريا إلى سوريا حرّة ديمقراطية، كما يليق بشعبٍ عريق دفع خيرة شبّانه شبابهم ثمناً لآرائهم، وأجمعوا جميعاً على أنهم لن يتركوا الوطن، فكيف يتركون وطناً يعبدونه وضحّوا بسنوات من عمرهم في سجونه من أجل مبادئ يؤمنون بها، هي العدالة والحرية والكرامة؟ وكانت لهم شبه قطيعة مع معارضة الخارج وخاصة الائتلاف، تلك المعارضة التي ارتهنت منذ الأيام الأولى للثورة إلى دول جوارٍ عديدة، عربيّة أو أجنبيّة، وكلّ دولةٍ تدّعي أنها من أصدقاء الشعب السوري الذي كان أعزل في محنته. ومرّت الأيام والشهور، وبدأت الأحلام تذوي، وأُعيدَ اعتقال العديد من سجناء الرأي السابقين، بحجج خُلّبية، وزاد الوضع أذى وغضباً أعمى للجيل الأول من أبناء سجناء الرأي، الذين صاروا هم أيضاً في عمر الاعتقال، وخافوا أن يورثهم آباؤهم الفقراء ميراثاً وحيداً

في بلد الاعتقال: سوريا، هو ميراث الاعتقال. وكنت أحضر أشكالاً حادّة وعنيفة من الشجارات بين الآباء والأبناء، حول معنى البقاء في وطن لم يقدِّم لهم سوى الحرمان من الأب، وسوى القهر والذلّ والتحقير، حتى أن الأبناء كانوا يجدون صعوبة بالغة في إخراج جواز سفر، وأهمل العديد من أبناء المعتقلين السياسيين دراستهم الجامعية، حتى أن أحدهم قال لي: «أكاد أتقيّأ حين أدرس مادة <القومية>، لأنها كذب في كذب؛ فأيّة وحدةٍ، وأيّة حرّية، وأيّة اشتراكية، وقد حرموني من والدي، بسجنه، خمسة عشر عاماً؟». شابٌّ آخر أصابه انهيار عصبي وأخذ يردّد كببّغاء: «كلّ عمري كنت أحلم حلماً واحداً: أن نجلس إلى طاولة الطعام أمي وأبي وأنا. لم يتحقق حلمي هذا! فهل هنالك أبسط من هذا الحلم؟!». ومن حسن حظ رفاقي سجناء الرأي أن معظمهم خرج من السجن وأكمل دراسته في الطب، أو أصبح من أهم المُترجمين في عالمنا العربي، مثل المبدع ثائر ديب، والمبدع محمد حبيب الذي ترجم رواية «العمى» لساراماغو، وهو في السجن، أما ثائر ديب فيتحفنا بكتب مترجمة مذهلة وهو يعيش في بيروت، والدكتور راتب شعبو، صديقي، كتب عن تجربته في السجن، كذلك ياسين الحاج صالح، وهما من زملائي في كلية الطب. وأحياناً أفكر في أنني لم أُعتقل بالمصادفة، لأنني كنت مثلهم أحمل الأفكار نفسها عن الحرية والكرامة والعدالة وتكافؤ الفرص، ولا أنسى كمّ التقارير الأمنية التي كُتبت بي، ومنها وما يثير عاصفة من الضحك الأليم في نفسي: برجوازية متعالية متعاطفة مع أحزاب يسارية.

يا للمُخبِر المبدع!

أصدقائي، هؤلاء الوطنيون، الذين ارتضوا أن يدفعوا ثمن أفكارهم، وأن يدفعوا الثمن نيابةً عنّا، ازداد التعامل معهم بتحقير وتهميش وظلم،

بعد الثورة، وصاروا يتعرّضون لغضب الجيل الأول من أبنائهم، الذين لم يجدوا أيّ رابط يشدّهم إلى وطنٍ تفنّن في إذلال أبنائه. خاف الجيل الأول من توريث الاعتقال، فكلّ شيء يُورَّث في عالمنا العربي، من توريث الحكم إلى توريث الاعتقال، واضطرّت تلك النخبة إلى ترك الوطن بعد أكثر من أربع سنوات من محاولة فعل شيء وطنيّ ومُنتج، وتطورت الأمور إلى عنفٍ غير مسبوق وتفنُّنٍ في الإجرام، وأصبحت مهمة المواطن السوري حلّ الألغاز: من المسؤول، داعش أم النظام؟! وكيف تسيطر داعش على الرقة ويقبض الناس هناك رواتبهم من الدولة السورية، ويدفعون فواتير «السيرياتيل» للدولة، ومع ذلك يخضعون لحكم داعش؟! هل على الإنسان أن يخصّ رأسه، أو أن يمشي على رأسه، كي يحلّ تلك الألغاز؟ اضطرّ أصدقائي خوفاً على أولادهم إلى الهجرة عن طريق منظمات حقوقية وإنسانية تشجّعهم وتؤمّن لهم ولأسرهم حياة كريمة. هؤلاء سجناء الرأي الذين لم يخطر في بالهم – على الرغم من الظلم الفظيع الذي تعرّضوا له – أن يتركوا الوطن، لكنهم أُجبروا لأن لا «براءة ذمّة» تُعطى لهم ليتمكنوا من العمل، ولا جواز سفر، وخوفهم على أولادهم يزيد. عائلة تلو عائلة غادروا سوريا إلى السويد وألمانيا وفرنسا والنرويج. لكنني، وبكل براءة طفلة ما تزال قابعة في قلبي، أتذكّر الأيام الحلوة في قرية قسمين – تبعد عن اللاذقية ثلث ساعة. قسمين قطعة من الجنّة، وهي قرية الصديقين الرائعين محمد حبيب وزوجته نوال، كنت أرشف القهوة ونظري يسرح في الأخضر اللامتناهي، ثم ألعب مع ابنتهم لميس التي أنجباها بعد خروج محمد من السجن. لميس كانت تقطف لي عناقيد الحصرم غير الناضج، فآكلها بشهية وعيناي تدمعان من الحمض والشجن. الآن محمد ونوال وابنهما قبل السجن وابنتهما بعد السجن غادروا

إلى النرويج، من يجرؤ أن يلومهم؟! لكنْ، من يجرؤ أن يلومني أيضاً حين أبكي كالطوفان شوقاً لأنامل طفلة في الثامنة تُغامر وتتسلق الدالية لتقطف لي حصرم قرية قسمين؟

آه يا أصدقائي! صار للوطن طعم العلقم، أو الحصرم شديد المرارة!

السجون السورية

يأخذون على العرب أنهم لم يُبدعوا في روايات الخيال العلمي، وهذا صحيح، لكن هل من إبداع أكبر من أدب السجون، الأدب الذي روّع كلّ من قرأه، ولست بصدد التحدث عن الروايات والكتب التي تناولت السجون العربية، لكن من الواجب الأخلاقي والإنساني والوجداني أن نعرف بعضاً مما يحصل في السجون السورية، بشهادة سجناء رأي.

مهما كانت الطريقة التي يُوقَف بها الشخص المُتهم بأخطر تهمة في العالم أن له رأياً مُخالفاً ورؤية مختلفة، سواء كان في محطة سفر أو ينتظر عند حاجز أو في مقهى رصيف، فإن عناصر الأمن يقودونه بطريقة فظّة إلى السجن، أي إلى غرفة ضيّقة نتنة الرائحة تضمّ العشرات من المساجين، ومعظمهم عراة أو بلباسهم الداخلي فقط؛ أجساد الرجال السجناء العارية متلاصقة إلى حدّ يصعب تمرير خيط بين جسد وجسد، وقمة الرفاهية تكون بأن يجد بضعة سجناء مكاناً في غرفة السجن للقرفصاء أو التربّع، وتتم المناوبة مع الواقفين. أحد السجناء استقبله السجّان في مكتبه، ففرح، في سرّه، من أنه يُعامَل معاملة إنسانية، فإذا بستّ شاشات تلفزيونية كبيرة تعرض كلّ منها صورة سجين عارياً

تماماً، لوحة مرعبة لم تخطر في بال سلفادور دالي ربما، ومن المؤكد أن السجان يعتمد على رأي الأطباء النفسانيين في معرفة أكبر قدر من الوسائل وطرائق التعامل التي تذلّ وتهين كرامة السجين وتُروّعه، وهذا ما ذكره المراسل الصحافي المبدع سامي الحاج، حين صوّرت معه قناة «الجزيرة» عدّة حلقات عن سجنه في غوانتانامو. في السجون السورية يقدّمون زجاجة مياه لعدّة سجناء، وزجاجة أخرى مماثلة، لكنها فارغة، كي يفرغوا بها البول، أما البراز فثمة وعاء في الغرفة ذاتها لتلك الغاية. وجبة طعام صغيرة واحدة تُقدَّم للسجين في اليوم، وهكذا فإن السجين السوري لا يخسر وزنه فقط، بل يذوب، وكل من عانى هذه التجربة حكى أنه خسر من وزنه بين عشرة إلى عشرين كيلو غراماً في أقل من شهر. الأهم أن هنالك أطفالاً مع هؤلاء المساجين السياسيين الراشدين، أطفالاً يبكون من الجوع، وبعض الكبار يعطونهم حصصهم من الخبز، لأنهم لا يستطيعون تحمُّل أن يروا أطفالاً يتضوّرون من الجوع، والبعض يُخبِّئ الخبز إلى حين يبدأ الطفل بالبكاء جوعاً، وتهمة هؤلاء الأطفال هي التظاهر، أو أيّة تهمة أخرى – لا يهمّ – كيف يمكن لهؤلاء الأطفال أن يتحملوا هذا الوضع؟! محشورين وسط حشد من الرجال العراة المتلاصقين بشدّة! أية صدمة مُروّعة يتعرّض لها هؤلاء الأطفال؟! أهذا هو الشعر الذي تعلّموه في المدرسة: بلادي بلادي بلادي، لك حبّي وفؤادي! أو: سوريا يا حبيبتي أعدتِ لي كرامتي، أعدتِ لي حريتي!

يا سلام على الكرامة والحرية في سوريا خاصة تلك التي نلقّنها للأطفال! المُضحك، كي لا نبكي، أن العديد من سجناء الرأي هؤلاء كان السجّان يسألهم: لماذا أنتم هنا؟ فيردّ السجناء: أنتم من اعتقلتمونا وأنتم من يجب أن تعرفوا لماذا نحن هنا! ومن الواضح أن انعدام قيمة

الإنسان السوري والتسيّب الفظيع في اعتقال الناس، وتكاثر الفروع الأمنية والعمل المنفرد والمستقل لكلٍّ منها، هو ما جعل السجان يسأل السجين: لماذا أنت هنا؟! سؤال لا يُصدَّق لولا أنه يحصل في الواقع وفي قلب السجون السورية. أحد السجناء – حين ألحّ عليه المحقق – لماذا أنت هنا باعتقادك؟ أجاب: ربما لأنني كنت سجيناً سابقاً، فردّ المحقّق: وماذا تعتقد أيضاً من أسباب؟ فردّ السجين: لا أعرف، ألا يجب أن يكون ملفّي عندكم، وأن تعرفوا كلّ شيء عني؟

هل بلغ الاستهتار بكرامة الإنسان السوري وإنسانيّته أن يُعتقَل بلا سبب واضح! وأن تنقلب الأدوار فيصير السجّان يسأل السجين: لماذا أنت هنا؟!

هل ما عاد مُهمّاً أن تكون التهمة واضحة، حتى – وهي كذلك – لو كانت تهمة لا إنسانية كحرية الرأي والمطالبة بالحرية والكرامة؟! كما لو أن الغاية الأساسية، والوحيدة، هي إذلال كل سوري يطالب بالحرية والكرامة، وإعطاء دروس لمن لم تتسع لهم السجون بأن يخرسوا تماماً، وربما لو كانت هناك أمكنة تتسع لحشد الأجساد العارية المتلاصقة للسجناء لما تردّد مديرو الفروع الأمنية في ممارسة هوايتهم: تأمُّل السجناء عراة تماماً من خلال شاشات التلفزة في مكاتبهم مفرطة الأناقة. هذا ما يحصل في السجون السورية، وأؤكد قسوته وخطورته خصوصاً على الأطفال المساكين الذين لم يتعودوا بعد أن البكاء لا يثير شفقة الجلاد وحنانه؛ فالتحقير والإهانات وترك السجين عارياً كما خلقه ربُّه، وجعل الأجساد تتلاصق بتلك الطريقة الحقيرة المُذلّة، والتجويع حتى الموت، كلّها أساليب لا تقلّ أذىً عن العنف الجسدي، بل لعلها – كما يذكر الأطباء النفسيون – تدمّر

الإنسان نفسياً وتجعله يشعر أنه بمرتبة دون الحيوان. هل يمكن بعد هذا الواقع أن نعتب على الضمير العالمي، أو الدول العظمى، أو حتى دول الجوار بأنها لا تتعاطف كفاية مع السوريين؟! أليس من البدهي أن يحبّني وطني ويصون لي كرامتي وحريتي؟ أم أن سوريا استوطنتها الوحوش واستوطنها الموت بكلّ أشكاله، فجعلت نحو نصف الشعب يهجُّ برّاً وبحراً وجوّاً، مُفضِّلاً أن يكون طعاماً لأسماك القرش، بدلاً من أن يكون في وضع يسأله فيه المحقق وسط شاشات تعرض باستمرار صور سجناء رأي عراة: ما هي تهمتك؟ ولماذا أنت هنا، برأيك؟! وأن تكون هذه هي الحالة الوحيدة التي يُسمع فيها رأي الإنسان السوري؟!

اخضع ترضع!

قرأت هذه العبارة (اخضع ترضع) في كتاب رائع بعنوان (لماذا العرب ليسوا أحراراً) للمفكر المصري مصطفى صفوان، وهو أحد أهمّ المُحلّلين النفسيين في العالم، وقد ترجم كتابه هذا، من الفرنسية إلى العربية، الدكتور مصطفى حجازي، الذي أبدع أيضاً كتباً عظيمة، أذكر منها «سيكولوجية الإنسان المقهور»، ثم «سيكولوجية الإنسان المهدور». وطبعاً، المقصود بكُتُبهما هو الإنسان العربي. أرغب في الاستناد إلى كتبهما القيّمة في تحليل الظروف القمعية الاستبدادية التي يتعرض لها المواطن العربي، وتهميشه والإصرار الواعي والمُمنهج على إبقائه مُتخلّفاً. فمنذ سنوات وأنا ألاحظ ظاهرة خطيرة ومُقرِفة، في الوقت نفسه، تتمثّل في طريقة تفكير أنصاف المثقفين (أو من يدّعون الثقافة والفهم) بالشعب. إذ يُصرّون، بل يستمتعون، بأن يصِفوا عامّة الشعب بالحثالة والجهل المُطبِق (كما لو أنهم ولدوا وفي جيناتهم مورثة الجهل)، وبأنهم لا أمل منهم، لأنهم «دون»، وأغبياء، ومن طبقة دنيا يستحيل الارتقاء بها، وقد لاحظت أن هذه الطريقة في التفكير والتنظير والتعالي زادت كثيراً منذ سنتين، أي منذ بداية الثورة السورية التي لم يبقَ أحد في الكرة الأرضية إلا وتاجر بها وسرقها ووظّفها

واستغلّها لمصالحه. يُروّعني هؤلاء الجهلة الحقيقيون – أنصاف المثقفين المتعالين على الشعب وغير المُتعاطفين معه على الإطلاق، لأنه، حسبما يعتقدون، شعبٌ جاهل بالفطرة، وغبيٌّ بالولادة ولا أمل منه، ولا يخجل بعض الأطباء الذين أعمل معهم منذ سنوات من أن يصفوا مرضاهم الفقراء والمساكين بالحمير! أيّة روح نجسة يمتلكها طبيب مثلاً أو نصف مثقّف أو ربع مثقف، حتى لا يشعر ببشرٍ دُمِّرت بيوتهم ونزحوا إلى مدن أخرى، أو خارج وطن تحوّل إلى بركة دماء وساحة دمار! أيُّ فهمٍ قاصر وجاهل ومتصلّب بالغرور والفوقية واحتقار الشعب الضحيةً، ويقول عن هؤلاء إنهم بُلهاء وجهَلة وحمير! آلاف النازحين الذين ألتقيهم في اللاذقية، وخاصة في المستشفى الحكومي، يجمّدون الدم في عروقي، لشدّة معاناتهم، لهول وفظاعة ما مرّوا به ويعيشونه، وفوق ذلك تجد شريحة من الجهلة الحقيقيين ينظرون باحتقار ودونية إلى هؤلاء الضحايا المساكين ويصفونهم بالجهل والبلاهة! ولا يتعاطفون معهم على الإطلاق، كما لو أنهم هم من تسبّب بالدمار والخراب والموت لفلذات أكبادهم!؟ إحدى الطبيبات قالت لي: هؤلاء البُلهاء يتركون أطفالهم بلا لُقاحات ولا يرسلونهم إلى المدارس!

سبحان الله! أيّة رؤية عبقرية تتمتع بها هذه الطبيبة! إنها طبيبة أطفال بلا قلب ولا فهم، لأن الفهم الحقيقي يكون في القلب أولاً ثم العقل. أيّة لقاحات هذه ستفكّر فيها أمٌّ ملتاعة رأت بيتها يتهدّم أمام عينيها، وربما كان داخله أحد أولادها، ربما لم تستطع انتشال جثث أحبائها من تحت الأنقاض! أية لقاحات تشكّل قمّة في الترف عليها أن تفكّر فيها وهي تتوسّل قدراً وحشياً أن تُطعم أطفالها المتضورين من الجوع، وقد اضطرّها ذلُّ الفقر والدمار إلى أن تدفع بأولادها للتسوّل؟! هل تلك

الأم جاهلة وغبية وتستحق الاحتقار من قبل طبيبة يُفترَض أن تمتلك حسّاً إنسانياً قبل شهادة الطب التي لا قيمة حقيقية لها دون حسّ إنسانيّ وتعاطف مع البؤساء والمرضى؟! يستمر هؤلاء أنصاف المثقفين، وثلاثة أرباع الجهلة، في إعلان أفكارهم المُحتقِرة للشعب، ويتهمونه بالبلاهة والجهل، وبأن هؤلاء النازحين الفقراء المساكين والذين لا حول لهم ولا قوة لا يرسلون أولادهم إلى المدارس؟ أيّة مدارس وسط دمار شبه شامل؟ كم مدرسة دُمّرت في سوريا أو تحولت إلى مأوى لنازحين؟ أيُّ عِلمٍ هذا والتلميذ يتضوّر جوعاً، ويشحذ الطعام والقليل من المال من المارة؟ منذ أيام لحقني طفل سوري لا يتجاوز السابعة من عمره، وصلني صوته الحزين – قبل أن ألتفت لأراه – كان يتوسل أن أعطيه تفاحة من كيس التفاح الذي أحمله، التفتُّ إليه فرأيت في وجهه كلّ أطفال سوريا الذين لم يذوقوا التفاح منذ أشهر، جلّلني العار وأنا أعطيه التفاح، وشكرني بعبارة تنضح كلماتها بالذلّ، فغضبت منه وقلت له: يجب ألا تشعر بالذلّ وألّا تتفوه بهذه الكلمات أبداً! لكنه نظر إليَّ باستغراب كأنه لم يفهم ما قلته، ثم كرهت نفسي، بسبب موعظتي السخيفة اللاواقعية! كيف نطلب من جائع بلا مأوى ولا كرامة ولا أمان ولا استقرار، كيف نطلب من طفل شاهد الموت والذبح والدمار ونزح، ألا يستجدي، وأن يستعمل عبارات تنضح بالكرامة وعزة النفس؟ كيف يمكن للبعض من أنصاف المثقفين، من حملة الشهادات الأميين، ألا يتعاطفوا مع هؤلاء العظماء البسطاء، الذين نطلق عليهم عبارة عامة الشعب؟ كيف يمكن أن نصف هؤلاء الأبطال الصامدين والصامتين بأحقر الصفات وأكثرها دونية؟! كيف يمكن لقُساة القلوب هؤلاء أن يتعالوا عليهم كما لو أنهم خُلقوا من طينة أخرى؟ وعن أيّ جهلٍ يتحدّثون؟ وأيّة مدارس هذه؟ واسمحوا لي أن أذكر هذه الحادثة

ذات الدلالة المهمة على فساد التعليم، وفساد المؤسسات التعليمية؛ فمنذ سنوات راجعني طفل فقير عمره عشر سنوات، وكان بصحبة والده الذي أحسستُ وأنا أنظر إليه أنه من أهل الكهف، لشدّة بؤسه ومظهره الرثّ، التقيت بالطفل ووالده في العيادة العينية في المستشفى الوطني في اللاذقية، وتحدّث الأب بصوت متهالك من التعب بأن ابنه يعاني من ضعف في الرؤية، وسألت الطفل: في أيّ صفٍّ أنت؟ فقال: في الصف الخامس الابتدائي. ابتسمت له وقلت: ستتعاون معي لأفحص عينيك الجميلتين، وكانت نتيجة الفحص أن الطفل شبه أعمى ولا يرى إلا حركة الأشياء على بعد متر فقط! ولديه 32 درجة من قصر النظر (ميوبي)، وشبكيّتُه مهدّدة بالانفصال. سألت الطفل: أنت حتماً لا ترى شيئاً على السبورة! فقال: لا أرى شيئاً. ثم سألته: ولا تتمكّن من القراءة لأنك لا ترى ولا تضع نظارة طبية؟! فقال: لا أرى شيئاً، ولا أعرف لا القراءة ولا الكتابة. حبست دهشتي الأقرب للذهول وسألته: طيّب، كيف وصلت إلى الصف الخامس؟ فردّ ببراءة الأطفال: «كلما رسبت في صفّ بينجّحوني!». وتدخّل والده كي يقلّل من ذهولي: يا دكتورة، هناك قانون في الدولة: ممنوع الرسوب في المرحلة الابتدائية. يا سلام! تحيا المدارس! ويحيا العلم! وتحيا الإنسانية التي ترأف بالأطفال وتقفز بهم من صف إلى صف حريصة على ألا يُصابوا بأيّة عقدة نفسية إن رسبوا! قد تبدو تلك القصة كنُكتة، لكن هناك قصة أكثر إيلاماً وتعكس أيّ نخر وفساد أصاب مؤسسة بناء الأجيال (التربية ثم التعليم)؛ أعرف طالباً في صف البكالوريا ضعيف جداً في اللغة الفرنسية، وقرّر والده أن يتلقى ابنه دروساً عند أشهر أستاذ في تدريس مناهج البكالوريا في اللغة الفرنسية، لكن الأستاذ الذكي سأل الطالب من أول درس: هل تريد أن تتعلم الفرنسية، أم تريد أن

تحصل على العلامة التامة في الفحص؟ فرد الطالب على الفور: طبعاً، لا أريد سوى العلامة التامة! فأعطى الأستاذ الطالب نحو 50 صفحة، وقال للتلميذ: معك عام كامل لتحفظها عن ظهر قلب. وفعلاً حفظ الطالب تلك الصفحات عن ظهر قلب، وحصل على العلامة التامة في مادة اللغة الفرنسية في فحص البكالوريا، وهو لا يفقه كلمة فرنسية. هذا هو العلم النور! هؤلاء المساكين النازحون والجياع والمذلولون يفرزون الجهل! من يعتني بأطفال سوريا؟ من يبالي بهم؟ من يشعر بهؤلاء الشبان السوريين والعرب الذين يحرقون أنفسهم كل مدة لأنه لم يعد في استطاعتهم تحمّل الذل والفقر، هل يحرقون أنفسهم لأنهم جهلة! أم لأن العيش في هذا العالم العربي أصبح كما لو أنه «بروفة» للعيش في الجحيم؟ ألا تشبه الحياة في سوريا الجحيم على الأرض؟ وفوق كل تلك المعاناة الأسطورية لشعب عظيم لا يزال متماسكاً ولم يفقد عقله من هول ما رأى وعاش، على مدى أشهر، نجد شريحة من أنصاف المثقفين – الجهلة بامتياز – يحتقرون هؤلاء المُذَلّين المُهانين ويصفونهم بالجهل والبلاهة وكل الصفات التي ترسِّخ الدونية والتحقير. هؤلاء هم الجهلة الحقيقيون الذين يجب محاربتهم واستئصال أفكارهم المتعالية الفاسدة كما نستأصل العشب الضار، هؤلاء لا يؤمنون بالطاقات العظيمة الحية للشعوب، والتي حُبست لعقود في قمقم الخوف والظلم، هؤلاء الجهلة المنتفخون بأنانيتهم لا يفهمون ولا يدركون أن هذا الشعب العظيم، على الرغم من وحشية ما عاناه ويعانيه، قد قرر ألا أحد بعد الآن يُصادر حلمه بالحرية والكرامة، وأن خسائره لن تذهب سُدى، وأن أول ما سيقوم به الشعب السوري العظيم، بعد أن يلتقط أنفاسه ويعيد دفن أحبّته دفناً لائقاً، هو أنه سيقاوم هؤلاء المستبدّين الأنيقين المزيفين والمُحتمين بقناع الثقافة، هؤلاء هم

الأعداء الأشد خطورة على الشعب الطامح للحرية والكرامة والفرح، لأنهم يُصرّون على وصم الشعب بالجهل والغباء، وبأن لا أمل من هؤلاء الرعاع. هؤلاء هم أخطر أنواع الاستبداد، لأنهم يعمدون إلى غرس ثقافة الطاعة والدونية والفشل لدى عامة الشعب، كي يسيطروا عليهم كلياً، كما حلّل مصطفى صفوان في كتابه العظيم (لماذا العرب ليسوا أحراراً) بأن أهم آليات الاستبداد يمكن إيجازها بعبارة: اِخضَعْ تَرضَعْ!

لا خضوع بعد اليوم، لأن معمودية الدم أسقطتْ كلّ الطواطم، وكشفت عفنَ أنصاف المثقفين رموز الاستبداد، وحقارتهم، وخيانتهم.

إخفاقات المدرسة في سوريا

أنا لم أترك سوريا منذ بداية الثورة السورية، وكنت شاهدة على كلّ ما يجري تحديداً حيث أسكن، في اللاذقية، التي تحولت خلال سنتين إلى ما أسميته المدينة السرطانية؛ فقد استوعبت نحو مليوني نازح من حلب وحدها، سكن قسم منهم في المدينة الرياضية في اللاذقية، في خيم شديدة البؤس، إضافة إلى نازحين من المناطق الملتهبة المجاورة مثل جسر الشغور وإدلب وغيرها. وكنت أزور باستمرار مُخيمات اللاجئين شديدة البؤس في المدينة الرياضية، حيث يقف آلاف النازحين في طابور طويل في انتظار الطعام الرديء، وتفشّت الأمراض المُعْدية مثل الجرب والقمل وخاصة الليشمانيا (حبة حلب)، وعانى الكبار والصغار من سوء التغذية؛ إذ ألغيت وجبة العشاء بعد مدّة. أقول هذا الكلام لأن هذه الصورة أو هذا المشهد هو أفضل وضع موجود في اللاذقية بالنسبة إلى النازحين، وتبرعت جهات حكومية وغير حكومية (منظمات مجتمع مدني) في إنشاء مدارس لهؤلاء الأطفال النازحين في فترة بعد الظهر، ولم تكن دروساً منتظمة بمعنى الكلمة، ولا أعرف كيف يمكن لطالب أن يستوعب ويدرس وهو جائع وينام بلا عشاء! ومعظم هؤلاء الأطفال لم يكونوا يلتزمون دروس المدارس

الممسوخة، وكان معظم هؤلاء الأطفال يتركون المدرسة ويتحولون إلى متسولين أو باعة لأغراض تافهة، ليتمكنوا من إعالة أنفسهم وأسرهم، وصار منظر أطفال سوريين ينبشون في القمامة ويأكلون منها شبه طبيعي، وكذلك منظر المتسولين الأطفال الذين تغصّ بهم شوارع اللاذقية صار طبيعياً.

الجهات الرسمية الحكومية حاولت أن تعالج المشكلة من خلال افتتاح مدارس جديدة بدوام مغاير للدوام الرسمي للمدارس الحكومية، لكن حتى تلك المدارس لم تستوعب كل النازحين الأطفال، خاصة أن قسماً كبيراً منهم سكن في قرى ومناطق لا تتوفر فيها المدارس.

طبعاً أنا أتحدث عن الداخل السوري، وأغضّ النظر عن أحبائي الأطفال الذين اضطروا إلى النزوح خارج سوريا والإقامة في مخيمات بائسة، وأحب أن أذكر التجربة الرائعة لمؤسسة الأونروا الخاصة بالفلسطينيين التي أقامت منذ زمن عدة مدارس ممتازة ومستوصفات في منطقة الرمل الجنوبي الشعبية في سوريا، وآوت آلاف الطلاب الفلسطينيين الهاربين من حصار مخيم اليرموك في دمشق. وكذلك التجربة الرائدة لمؤسسة «موزاييك»، وهي منظمة مجتمع مدني، فقد استأجرت بناء وحوّلته إلى مدرسة للأطفال، خاصة هؤلاء الأيتام أو الذين فقدوا أهلهم ولا يعرفون شيئاً عنهم، وكنت أزور مؤسسة «موزاييك» كطبيبة عيون لمعاينة الأطفال والاطمئنان على قدراتهم البصرية. وأزعم أنها من أنجح المؤسسات التي تهتم بالأطفال النازحين ودراستهم، ليس من حيث موقعها في أهم شوارع اللاذقية وشروط النظافة والعناية الصحية فحسب، بل من حيث كفاءة المدرسين ومعرفتهم بأبسط قواعد علم نفس الطفل؛ إذ كانت جدران الصفوف تغصّ باللوحات التي رسمها الأطفال، وكانت الابتسامة التي تشعّ من

وجوههم ابتسامة حقيقية وليست تمويهاً لقلق دفين وحزن عميق. أن تتمكّن مؤسسة مجتمع مدني مثل «موزاييك» من تحقيق هذا الإنجاز في احتواء أطفال أيتام وإنشاء مدرسة نموذجية لهم، وإخضاعهم لفحوص طبية دورية لسلامتهم وتربيتهم، لأن الأساس هو التربية أولاً ثم التعليم (وزارة التربية والتعليم)، لهو نصرٌ وفخر للسوريين الذين يعيشون أتعس ظروف في العالم، إلى درجة أن أُطلِقَ على الأزمة السورية اسم: مأساة القرن.

ولأنه لا توجد إحصائيات دقيقة في سوريا، وخاصة في مثل تلك الظروف المأساوية، فإنني لا أستطيع أن أعطي رقماً دقيقاً عن عدد الطلاب الذين تابعوا الدراسة، لأن عمالة الأطفال تزداد بشكل كبير في سوريا، من العمل في الأفران وبيع ربطات الخبز في الشوارع، إلى العمل في ورشات تصليح السيارات وبيع البنزين، إلى نادلين في مقاهي رصيف يقومون بإشعال الأراكيل للزبائن، إلى متسوّلين تغصّ بهم الشوارع ويبيعون العلكة أو البسكويت الذي لا أعرف من أين تأتي تلك القصعات العملاقة من بسكويت طعمه كنشارة الخشب ويتغذى منه معظم فقراء سوريا. هذه النسبة العالية جداً من عمالة الأطفال وتشردهم في الشوارع تدل على احتمالين لا ثالث لهما: إما أنهم التحقوا بمدرسة ما وتركوها بسبب شظف العيش، ولاضطرارهم إلى إعالة أنفسهم وأسرهم، أو أنهم أساساً لم يختاروا المدرسة وفضّلوا تعلُّم صنعة تدرّ دخلاً يسدّ جوع المعدة حتى لو كانت التسول. وأحب أن أشير هنا – مع أن الإشارة تبدو خارجة عن الموضوع – إلى أن الإخفاق ليس فقط في المدارس السورية، بل في الجامعات أيضاً، ذلك أني أعرف مئات الطلاب الذكور يُرسّبون أنفسهم اختياراً كي لا يتخرجوا، وليتفادوا سوقهم إلى التجنيد حيث يتحولون بعد مدة إلى

ورقة نعي مكتوب تحتها: الشهيد البطل. هذا أكبر إحباط يمكن أن يعرفه طالب جامعي يختار الرسوب! كمن يختار المشي على رأسه.

أما كيف يمكن إصلاح إخفاقات المدارس في سوريا، فثمة سؤال يُبطن هذا السؤال ويسبقه، وهو: كيف يُمكن إصلاح وطن تحول إلى ساحة وغى، ونزح أكثر من ثلث سكانه، ومات غرقاً في البحر آلاف من مواطنيه واستشهد مئات الألوف من شبانه وأطفاله؟ كيف يمكن إصلاح وطن تحولت فيه البندقية إلى ما يُشبه رغيف الخبز، بنادق وأسلحة كيفما تلفّتنا؟ كيف يمكن إصلاح وطن يقف شبّانه طوابيرَ أمام السفارات الأجنبية طلباً للجوء؟ ولكننا محكومون بالأمل، وحبّ سوريا متجذّر في قلوبنا كما تتجذر جذور الشجرة في التربة. ومن خلال معاينتي الحثيثة لتجربة الأونروا ومؤسسة موزاييك، أجد أن الحل الأمثل هو فتح الباب على مصراعيه لمؤسسات المجتمع المدني وتسهيل عملها، وتأمين كل ما يلزمها من أجل إقامة مدارس ومستوصفات تُعنى بالأطفال النازحين وتهتم بهم، وأن تهتم الدولة بالأطفال المتسولين وتكون جادّة في إلحاقهم بالمدارس ومتابعة دراستهم ودوامهم المدرسي، وأن تجبر الأهالي أن يرسلوا أولادهم إلى المدرسة.

هل يُعقل إذاً أنه طوال خمس سنوات من عمر الثورة السورية لا نجد سوى طوابير من الأطفال يتسولون في الشوارع، أو يُزجّون في عمالة تمسخ طفولتهم! طوال خمس سنوات لم تتمكن جهات رسمية من جمع آلاف الأطفال البؤساء في مدارس، تحول معظمها أيضاً إلى مناطق إيواء ولجوء لآلاف الأسر السورية النازحة. وهنا لا بد من تحميل المجتمع الدولي مسؤولية أزمة أطفال سوريا؛ إذ يجب أن تساهم مؤسسات المجتمع الدولي في تبرعات كافية، وتأمين مساعدات

حقيقية لإعادة اليتيم السوري والمُشرد السوري إلى المدرسة. لكن تظل المسؤولية الأكبر هي مسؤولية الدولة التي عليها حماية مواطنيها وتأمين التعليم لأبنائها. أطفال سوريا أطفال نعمة، كانوا دوماً متفوقين ويحلمون بمستقبل مُشرق، ومن الإجرام نسف أحلامهم؛ فهم من سيصنع مستقبل وطن عظيم اسمه سوريا.

وأخيراً، أجد أن الحل هو في التعاون الوثيق بين مؤسسات المجتمع المدني (وينبغي تسهيل عملها ونشاطاتها) ومؤسسات الدولة، في إصلاح أوضاع التعليم في سوريا، عسى الأمل يُشرق من أطفالنا أكبادنا تمشي على الأرض!

أخلاق القطاع العام في سوريا

عملتُ في المستشفى الوطني في اللاذقية نحو ربع قرن، ولا أنكر أن ثمة تزاوجاً ناجحاً جداً بين الأدب والكتابة؛ فقد تمخّض عملي الطبّي طبيبةَ عيون عن كتابة عشرات القصص القصيرة وروايتين، هما: «نسر بجناح وحيد»، ورواية «هوى» (التي تحولت إلى فيلم سينمائي من إخراج المبدعة واحة الراهب، لكنه لم يُعرَض أبداً في سوريا، على الرغم من أن المؤسسة العامة للسينما اشترت الرواية مني، وكلّفها الفيلم ملايين الليرات). الآن أعيد صياغة ربع قرنٍ عشتُه أعمل طبيبة عيون في المستشفى الوطني الذي أسميته في إحدى رواياتي: مستشفى الرخام؛ أي من الداخل سخام ومن الخارج رخام. وفي أثناء سنوات عملي الطويلة تعاقب على المستشفى الوطني مديرون فاسدون ومرتشون يترأسون لجان شراء تفوقهم فساداً. بقي أولهم ثلاثة وعشرين عاماً مديراً للصحة، جمع فيها ثروة طائلة واشترى مزرعة كبيرة، وكان له حصة في كل اللجان، حتى في لجنة مكافحة القوارض (إذ إن المستشفى الوطني في اللاذقية قريب جداً من المرفأ الذي يعجّ بالجرذان والفئران)، وكان هذا المدير نفسه يقبض من كل طبيب يعمل في المستشفى الوطني أتاوة أو رشوة تعادل خمسة في المئة من حصّة الطبيب.

وهنا لا بدّ أن أشرح باقتضاب معنى عبارة «القطاع العام»، إذ كانت معظم مؤسسات الدولة من مؤسسة الكهرباء إلى مؤسسة المياه إلى مؤسسات «الإسكان» و«التبغ» و«النسيج» و«الخطوط الحديدية»... الخ، ترسل موظفيها، بإحالات طبّية خاصة، إلى المستشفى الوطني ليُفحَصوا ويُعالجوا عند أحد الأطباء العاملين في المستشفى الوطني، وتسدّد هذه المؤسسات، للمستشفى، أجور المعاينة والصور الشعاعية والتحاليل والعمليات... وفق تسعيرة وزارة الصحة. ثم يوزّع قسم المحاسبة هذه الأجور، كلّ شهر مثلاً، بنظام محدد معروف، فيكون للطبيب حصّة (نسبة محدّدة) من الأجور المسدَّدة عمّن فحصهم من مرضى، وللمستشفى حصة، وللممرضات والموظفين العاملين في المستشفى (وهو قطاع عام) حصة. وثمة 5 في المئة، من أجور استشفاء كل عامل في القطاع العام، تُعطى لمدير الصحة (وهذا نصبٌ وفساد صريح وغير منصوص عليه في القانون)، حتى أن أحد أطباء العيون ألّف كتاباً صغيراً عنوانه (قصة الخمسة في المئة)، لكن المدير نفسه، بعد أن فاحت رائحة فساده ونهبه لمال المرضى ولجان الشراء الفاسدة، خضع لمساءلة شكلية، فكان الموظفون من جهاز الرقابة المركزية يزورون المستشفى الوطني كل يوم، ويسألوننا عن قصة الخمسة في المئة، وبعض الأطباء الجبناء والخانعين أنكروا أن مدير الصحة يتقاضى من حصصهم 5 في المئة.

وبعد أشهر قليلة من التحقيق، طار مدير الصحة المرتشي إلى لندن، وبقي فيها خمس سنوات، وعاد بعدها إلى اللاذقية مُعزّزاً مُكرّماً ينعم بأشجار مزرعته وفاكهتها، ولم يدخل يوماً واحداً إلى السجن. تعاقب بعده مدير صحة آخر انتهج نهج الأول، لكنه، فيما بعد، صار

سفيراً لسوريا في الجزائر (أي جرت مكافأته بدلاً من أن يعاقَب). أما المدير الثالث، فيُقال إن سرقاته من المال العام وصلت حتى المليار ليرة، وبعد أن سُجن كل أعضاء المكتب الهندسي وأعضاء لجان الشراء العاملين في المستشفى، أُحرِج القاضي وحكم على المدير بالسجن، لكنه بعد أشهر قليلة دفع رشوة بلغت عدة ملايين، وخرج من السجن متفرّغاً لإدارة مستشفى خاص يملكه.

حتى طبابة القطاع العام نفسها كانت تخضع للواسطة والسلطة، فقد أجبر اللواء بهجت سليمان، كلَّ أطباء المؤسسة العامة للنسيج أن يُحوّلوا مرضى هذه المؤسسة حصرياً إلى صهره (طبيب عيون في المستشفى الوطني). وأذكر أن أحد المرضى توسل إليَّ أن أجري له عملية ظفرة في العين، لأنه يثق بي، لكن طبيب شركته، بإيعاز من بهجت سليمان، لم يوافق، وكان الصهر المدلّل يقبض مبالغ طائلة كل شهر من شركة النسيج. كذلك الحال في شركة التبغ وغيرها، إذ كان مسؤولون كبار في الدولة يهيمنون عليها ويأمرون الأطباء والمديرين بتحويل الموظفين المرضى إلى أطباء معيّنين.

وثمة مهازل كثيرة وتفوق الخيال في فساد القطاع العام وفي لجان الشراء تحديداً، فمثلاً كانت تُقدَّم مُناقصات بملايين الليرات لشراء أجود أنواع الخيوط الجراحية (ماركة أتيكون) للعين بعد عملية الماء الزرقاء، وكان سعر الخيط آنذاك (سنة 2000) 1200 ليرة سورية. لكن لجان الشراء، بمباركة من مدير الصحة، كانت تشتري كوماً من الخيطان الجراحية العينية، مستوردة من باكستان، وسعر الخيط ليس أكثر من عشر ليرات سورية، وهو رديء جداً ولا يصلح لخياطة جرح في العين، فيضطر الطبيب إلى أن يطلب من المريض شراء خيط

أتيكون، وتقوم الممرضة (بإيعاز من الإدارة) بفتح عدة خيوط رديئة صناعة باكستان كي يتخلصوا منها، وتُسجّل في إضبارة المريض وفي السجلّات أنها استُخدِمَت. وكنت كغيري شاهدة على هذا الفساد الفظيع وسرقة المال العام واستغلال المواطن المسكين الفقير، لكن الكلّ كان يُحذّرني من انتقام الكبار، ومن قدرتهم على إيذائي، ونفيي إلى مستوصف في القرداحة مثلاً. وبعضهم كان يائساً إلى درجة أنه يعتقد أن محاربة الفساد مستحيلة، والكل يخاف على لقمة عيشه، ويعتبر من سيجهر بالحق متهوراً ومجنوناً، فصار الفساد قاعدة وأقوى من الدولة.

لم يتغير الوضع بعد الثورة السورية، بل زاد الفساد في كل قطاعات الدولة وخاصة عند الحواجز المتعددة الأسماء (لجان شعبية، جمارك، جيش سوري...الخ) غاية الكل ابتزاز المواطن قدر الإمكان. حتى أن المستشفى الوطني صار يضمّ جناحاً مُترفاً خاصاً لصقور الصحراء تحت إشراف وتمويل أيمن جابر. ربع قرن قضيته في المستشفى الوطني لم أخرج بذكرى مُشرّفة سوى تعاطفي وحبّي للشعب المسكين المضطهَد والمُستغَلّ. وكيف أنسى حفلات الرقص الإلزامية في مناسبات كثورة الثامن من آذار وذكرى الحركة التصحيحية، حين كان الكلّ يُشارك في رقصات الولاء الإلزامية وتحت قرع الطبل العملاق الذي تصمّ ضرباته الآذان، وحتى مرضى القلبية والنساء حديثات الولادة كانوا يشاركون في الدبكة بطريقة هستيرية.

وأخيراً أحب أن أختم بمشهد قد يبدو خارجاً عن الموضوع لكنه من صلبه ومن لبّه؛ ففي إحدى المدارس الإعدادية، شاركت إحدى المدرّسات في الدبكة، أي برقصات الولاء الإلزامية، فيما ابن أخيها

ذو العشرين ربيعاً قد توفي تحت التعذيب في أحد أقبية النظام. ولما استهجنت العديد من زميلاتها سلوكها، ردّت لاهثة: أخاف على إخوته الأحياء!

لا كرامة مع الخوف ولا حياة معه. والموت ليس هو عدوّ الحياة، لأنه مصير كلّ كائنٍ حيّ. لكن عدوّ الحياة هو الخوف.

أشكال الجنون السوري

طالت إقامتي هذه المرة في باريس لأسباب عائلية محضة، فأنا لن أقدم طلب لجوء، لأن ذرة من تراب سوريا الحبيبة تساوي، عندي، الدنيا كلّها، وأكثر ما يغيظني هؤلاء الذين يسألونني: لماذا لا تقدّمين طلب لجوء في فرنسا؟ ليس هذا الموضوع الذي أريد التحدث فيه، بل مشكلة حقيقية أسمّيها بلا أية مبالغة وبحياد تام: أشكال الجنون السوري، وسأقوم بوصف حيادي ونزيه لنماذج من السوريين الذين التقيتهم مصادفة أو عن طريق معارف مشتركين، وسأترك للقارئ الاستنتاج والحكم على هؤلاء السوريين.

أولاً_ التقيت بالمصادفة عن طريق صديقة بأحد السوريين الذي كان يحتل منصباً عسكرياً مهمّاً جداً في الدولة، وبقي لسنوات طويلة ينهل من «خيرات» منصبه وأتاواته، فجمع ثروة طائلة لا يجرؤ أحد على أن يسأله: من أين لك هذا؟! ولم يُقدَّم للمساءلة والمحاكمة في سوريا، بل كان يبني القصور وتتمتع أسرته بامتيازات وترف خرافي. بعد أن تنعّم بمنصبه لأكثر من خمسة عشر عاماً، أتاه الإلهام بأن يصطف مع الثورة وينقلب ضد النظام، واختار باريس ليعيش فيها ملكاً يتسكّع كلّ يوم في مقاهيها الساحرة جامعاً حوله حاشية يقوم بتدليلها والصرف

عليها كي تستمع إلى نظريته العبقرية في حل الأزمة السورية، وهو لا يشعر بأيّ حرج أو خجل حين يقول إنه هو وحده من سيدخل سوريا فاتحاً ومُحرِّراً إياها من كلّ من يُسيء إليها، وسيوقف القتل والدمار، وسينتصر على النظام وداعش وسيطرد المقاتلين الغرباء، وسيتمكن حتى من كسر رأس الدول العظمى مثل أمريكا وإيران وروسيا وحزب الله...الخ، وإذا سأله أحد من حاشيته التي تُنصت له مبهورة من هذا الكلام السفسطائي: كيف ستحقّق ذلك؟ ومن يدعمك؟ يردُّ بثقة مُطلقة: سوف ترون، أنا من سيحرِّر سوريا. وإذا سأله آخر: متى ستنجز مشروعك؟ يحدد وقتاً بين شهر وشهرين!

التقيت هذا الرجل في باريس منذ أكثر من عامين، وكان يردّد الكلام نفسه مع شلّة الأُنس نفسها، ويبدو أنهم لا يبالون بكلامه مادام يدفع الفاتورة دوماً، التقيته مرة واحدة وشخّصتُ أيّ جنون ينتابه وأيّ ضلال يتوه به عقله، وإلى أيّ حدٍّ بلغ به الانفصال عن الواقع! وإلى أيّ حدّ بلغ به الهذيان حتى لا يفهم أية سخرية واحتقار واستخفاف يثيره كلامه غير المنطقي في السامعين، في الحاشية المرتزقة، التي تذكّرني بكتاب العبقري القسيمي (العرب ظاهرة صوتية).

أيّة مصداقية يتمتع بها هذا الرجل الذي ظل مسؤولاً مهمّاً في النظام السوري لأكثر من خمسة عشر عاماً؟! أي احتقار لعقول من يسمعه وهو يشرح نظريته كفاتح ومنقذ للشعب السوري الملتاع والمروع من شتى أنواع المآسي؟! والأهمّ، أيّ حبّ مُنافق وانعدام إحساس يتلبّسه من رأسه حتى أخمص قدميه حتى يستخفّ بما يحدث على أرض الواقع من قتل ودمار وتهجير، ومن فهم حقيقي لطبيعة الصراع على سوريا، وإصرار الكثير من الدول الشقيقة والعظمى على تدمير سوريا. مسؤول معتوه سرق المليارات من الوطن – الذي يُفترض أن يؤتمن عليه –

وجاء ممثلاً من الطراز الرفيع ولاجئاً إلى مقاهي باريس، وسط حاشية انتهازية لا يهمّها سوى أن يصرف عليها، فتُطريه وتثني على مشروعه الإنقاذي للجحيم السوري! يخيَّل لك أنه سيدخل سوريا على حصان أبيض، كما فعل الأمير في قصة ساندريلا، فيُقبِّلها قبلة واحدة تجعلها تفيق من غيبوبتها. هذا الرجل اللاأخلاقي، واللاوطني، والمنافق الذي نهب المليارات من سوريا مستغلاً منصبه، يتحول إلى حكواتي مجنون يتاجر بالثورة السورية والشعب السوري.

رجل سوري آخر التقيته مصادفةً أيضاً، وهو يحمل شهادة جامعية عالية، وكان يعيش مرفّهاً في سوريا، ولديه أملاك ومصالح، ولم يترك سوريا طوال ثلاث سنوات منذ بداية الثورة السورية، لكن ولأسباب ودوافع – الله أعلم ما هي – قرّر بعد ثلاث سنوات طلب اللجوء في فرنسا، بذريعة أنه مهدَّد بأن يعتقله النظام بسبب كتاباته على الفيس بوك! وحين سألته: طيّب، لماذا لم يعتقلك النظام طوال السنوات الثلاث التي كنت فيها تحكي ما يحلو لك على صفحتك على الفيس بوك؟ تجاهل سؤالي تماماً، وبدأ يجترّ حديثه الأبدي بأنه ترك سوريا خوفاً من الاعتقال! وبأنه ينتظر أن يتقدم بطلب لجوء سياسي ليحصل على معونات من الحكومة الفرنسية، ولم يخجل من إبراز صور فوتوغرافية لبيت مدمّر سيدّعي أنه بيته، بينما الصور التي في حوزته هي لبيت آخر!

أما الخطورة والكارثة الحقيقية فهي في ذلك التكريس للكره والتخوين ورفض الآخر، وخاصة وسط الطبقة التي تدّعي الثقافة والناشطة سياسياً، فالمعارض الذي يقبض مالاً من السعودية يتهم المعارض الذي يقبض مالاً من تركيا بالخائن، والعكس صحيح، ولم يخجل أحد المدّعين بأنه من رموز المعارضة من التصريح بأنه يتمنى أن ينبش قبور الجنود الشهداء السوريين ليبول عليهم! هؤلاء الجنود الذين

هم في عمر أولاده، كيف يمكن للحسّ الإنساني أن يُشوّه ويموت لهذه الدرجة؟! كيف يمكن لأبٍ وإنسان يتمتع بالحد الأدنى من الإنسانية أن ينتشي من تخيُّله أنه ينبش قبور الجنود السوريين الشهداء ليبول عليهم؟ أيّة معارضة لا أخلاقية ومُنحطّة هذه؟ معارضة لا تحترم الإنسان ولا الشهداء، الذين هم شباب قُصفت أعمارهم في معارك لا تخصّهم ولا تعنيهم. ومن تمثّل هذه المعارضة؟! هل تمثّل الشعب السوري؟ إنها لا تمثل سوى مصالح الدول التي تقبض منها والتي باعت دماء السوريين لتقبض الثمن الباهظ. للأسف، الشعب السوري أعزل في محنته، لا أحد يمثّله ولا أحد قادرٌ على حمايته. شعب ينزف أبناءه وخاصة شبابه (صنّاع المستقبل)، شعب نزح نزوحاً خارجياً وداخلياً، ودفن أولاده الذين تحولوا إلى ورقة نعي (الشهيد البطل). الشعب السوري لا يمثّله أحد، وأصدق شعاراته: يا الله ما إلنا غيرك يا الله!

أحد المعارضين المعتدلين الذي يحكي دوماً بوجوب وقف العنف، وبالتسامح والجلوس إلى طاولة الحوار لغاية وقف النزيف السوري، يُشتم من قبل المعارضة التي تقبض الملايين من تلك الدول نفسها، ويُتّهم بأنه شبّيح ومتعاون مع النظام! أي اعتدال في التفكير وأي تفكير عقلاني يُتّهم صاحبه بالخيانة والتشبيح. معظم السوريين الذين التقيتهم هنا في باريس أشعروني بالخزي والعار، وقد تردّدت، لأشهر، قبل أن أكتب عنهم وعن مواقفهم، وعرفتُ أية تُهم سوف تطولني، وأية تلفيقات قد تنصب عليَّ، لكن ظل هوى الحقيقة كالوسواس في عقلي وضميري، خاصة وأنا أتابع بقلب نخره الحزن والألم أخبار وطني وشعبي، وأرى هؤلاء الذين اختاروا المنفى، لا لأن بيوتهم تهدّمت، ولا لأنهم اضطروا إلى الرحيل، بل اندفعوا إلى المساومة والتجارة بدم شعب عظيم هو الشعب السوري، وبأرض سوريا التي يعيث فيها فساداً

كلُّ شياطين العالم. أشهد للحقيقة لأن الحقيقة وحدها تحرِّرنا. ولأنني أؤمن بأن الصمت خيانة. هذه هي بعض النماذج الكثيرة المُخزية المُقاولة لمن يدّعون أنهم معارضة شريفة تمثل الشعب السوري، وهو يتبرّأ منها ويحتقرها إلى يوم الدين.

أصدقائي

لا يمكن أن أنسى أبداً ذلك اليوم الربيعي الساحر منذ أكثر من ربع قرن، حين كنّا – ثلّة من طلاب الطب سنة ثالثة ورابعة – نصفّق ونغنّي في باصٍ كبير، ونحن في طريقنا إلى صافيتا لزيارة برجها السامق، ولنتغدّى في مطعم الفوّار الشهير قرب بانياس. كانت الرحلة تسمَّى رحلة جامعية، أي بموافقة من عميد كلية الطب وبموافقة أمنية طبعاً. ما زلت أذكر بدقّةٍ كلَّ التفاصيل، أحد زملائي كان يغنّي «يا شجرة الليمون يا عينيّا»، وآخر يعزف على العود، وبعض الطالبات يرقصن بين المقاعد. آنذاك، وقفتُ في وسط الطلاب وأنشدت قصيدة «عشرون هلِّلْ يا ربيعُ للصِّبا»، للشاعر أبي سلمى، لأننا كنا في العشرين من أعمارنا، وكنا نضحك طوال الوقت، كما لو أننا جئنا إلى الحياة لنضحك، وقررنا أن نتوقف في طرطوس لنتناول الفطور ونشرب الشاي والقهوة، وحين هممنا بصعود الباص لاستئناف الرحلة إلى صافيتا، فوجئنا بثلاثة رجال متجهّمي الملامح، وكلٌّ منهم يزيّن خصره بمسدّس، صعدوا إلى الباص وسحبوا ثلاثة شبان من زملائنا بفظاظة، وأمروهم أن ينزلوا من الباص، وحين حاولنا فهم ما يجري، صرخ بنا أحدهم بأنهم من الأمن. العشرون هلّل يا ربيع، تحوّلت فوراً إلى أربعين ابكِ يا خريف!

تابعنا الرحلة بلا غناء ولا ضحك، والبعض أراد أن نعود إلى اللاذقية، لكن أحد الطلاب المسؤول في اتحاد الطلبة قال إننا يجب أن نتابع. وشعرت وأنا أصعد درجات سلم برج صافيتا اللانهائية أنني أصعد إلى الجحيم، ثم تبيّن لي أن معظم زملائي شاركوني هذا الشعور.

هذه الحادثة حُفرت كالوشم في ذاكرتي، وبقيت أتساءل بسذاجة وبراءة طفل: ما الذنب الذي يمكن لشبّان في العشرين أن يكونوا قد ارتكبوه حتى يُسجن كلٌّ منهم أربعة عشر عاماً؟ هؤلاء الشبان الثلاثة الذين اعتقلهم عناصر الأمن سُجن كلٌّ منهم أربعة عشر عاماً، اثنان منهما بتهمة الانتماء إلى رابطة العمل الشيوعي، والثالث بتهمة الانتماء إلى تنظيم الإخوان المسلمين. كانت تلك الحادثة بمثابة ولادتي الثانية الحقيقية في الحياة، أدركت هولَ ما نعيشه من ذعرٍ نتنفّسه مع الهواء من الأجهزة الأمنية، ولم يمرّ يوم –حتى الآن – إلا وأستعيد تلك الحادثة، ولا أعرف ما إن كان أحد ممن سيقرأ كلماتي سيصدقني أنني لا أستطيع أبداً أن أسمع أغنية «يا شجرة الليمون يا عينيّا». تابعت حياتي التي لا تشبه الحياة، كملايين السوريين، نتظاهر أنه «ماشي الحال» وأننا بخير، وكانت عبارات معيّنة تدخلني بحالة غريبة من الانفعال الأقرب إلى الثورة على الذات، أو بتعبير أدقّ تفجير الذات، فحين قال لنا الأستاذ المُختص بالطب النفسي إن تعريف الصحة لا يعني غياب الأعراض المرَضيّة، بل الصحة النفسية هي الأساس، وجدتُني أدخل في حالة عجيبة من الهياج وأنا أنخطف إلى الباص الذي كان يقلّنا إلى صافيتا، وأستعيد وجوهنا التي أصبحت كالجصّ، بسبب الذعر من عناصر الأمن. تتالت الأيام والسنوات وكنت أجد نفسي دوماً في مواقف مُهينة ومُذلّة، كما لو أن ضريبة العيش في سوريا هي تجرُّع الذلّ والإهانة، فحين جرى تحويل علاقتي مع وزارة الصحة من عقد مؤقت إلى

وظيفة ثابتة، أُبلِغتُ باستدعائي إلى فرع الأمن السياسي، عندما كنت أهمّ بالدخول إلى غرفة العمليات لإجراء عملية ماء زرقاء لرجل مسنٍّ جرى تخديره في انتظاري، لكنْ، تأجّلت العملية لأن موظفاً من الأمن يأمرني أن أراجع المعلم. وهناك في غرفة بائسة انتظرتُ ثلاث ساعات وأنا أجلس على سرير معدنيّ قذر – لم يكن من أثاثٍ غيره – ثم استدعاني الضابط، وكنت في حالة مريعة من الغضب والانفعال، فصرخت أسأله: لماذا تركتني أنتظر ثلاث ساعات؟ فرد بابتسامة احتقار: أنا من يحقُّ له أن يسأل وليس أنت! وبدأ يسألني عن صداقاتي وزملائي في الجامعة، ومن منهم ينتمي إلى تنظيم سياسي معادٍ للبعث. كنت أغلي من الغضب وأستنجد بوجه ابنتي الصغيرة التي كانت في عامها الثالث، وأفكر في أنه يستحيل أن أسمح لها بأن تمرّ بما أمرُّ به من ذلّ. كنت، ككلّ سكّان اللاذقية، لا نتحدث في سهراتنا إلا عن انتهاكات المسؤولين الذين لا يحاسبهم أحد، والذين جمعوا ثروات طائلة، وكنّا نراقب فجور السلطة التي تدفع بأحد هؤلاء أن يأمر مواطناً يمشي في الشارع أن يتكوّم في «طبّونة» سيارته ويغلقها تماماً، ثم يقود سيارته (الهامر) أو (المرسيدس) المُجنّحة بأقصى سرعة، ويعود إلى النقطة ذاتها ليخرج المواطن من القفص وهو يقهقه، متأمّلاً وجوه الناس الذاهلة وشفاههم التي ألصقها صمغ الخوف. ولا تزال هذه الممارسات قائمة حتى الآن في عام 2013، لكن يقوم بها أولادهم وأحفادهم، كما لو أن هناك جينة وراثية لهوى السلطة وإذلال الناس. حاولت أن أعوّض عن حياتنا الذليلة بالكتابة، وأعترف أنني كنتُ أتوارى وراء الكلمات، فأكتب عن لصوص من دون أسماء، وعن مدن من دون جغرافيا، كما في قصة القسم وسهرة استثنائية التي لم يبقَ أحد – خاصة من سكان اللاذقية – إلا وحزر أبطال القصة. كانت المُواربة فنّاً قائماً

بذاته، واكتشفت متعة أن توصل فكرة بكلمات غير مباشرة، لكن حالة الذعر من الأجهزة الأمنية و(فوبيا الاعتقال) ظلّت تلازمني كملايين السوريين، وكنتُ أتخيّل أن التهمة تسقط عليَّ وأنا أسير، كما تسقط نقطة ماء من مُكيِّف، تُهمة من نوع «المَسّ بهَيبة الدولة»، أو «إضعاف الشعور القومي» لـ 23 مليون سوري! أو غيرها من العبارات الخُلّبية. لكن بدأت أعي التغيير ليس في ذاتي وكتابتي، بل لدى الناس جميعاً، إذ صاروا يتجرّؤون ويحدّقون في وجه خوفهم ويمدّون له لسانهم هازئين، لم يعد أحد يخاف من الأجهزة الأمنية كالسابق، لا لأن بطشها قد خفّ وسطوتها قد قلّت، بل لأن الناس كرهوا خوفهم واحتقروه، وشعروا أن عيشاً يهيمن عليه الخوف هو عيش لا يستحق أن يُسمّى حياة، وأن الحياة ليست تراكم زمن، بل تألقاً وفرحاً، ولا فرح حقيقياً من دون الإحساس بالكرامة. أذكر منذ أشهر حين اتصل بي المدير في المستشفى الحكومي وطلب إليّ أن آتي إلى مكتبه، وسألته: خير؟ فقال: تعالي. وتركت عشرات أحبّائي المرضى النازحين ينتظرون، وحسبت أن ثمة أمراً مهمّاً يريد أن يحدّثني به. لكن، لمّا دخلت مكتبه وجدت ضابطاً في أمن الدولة، وطلب إليَّ المدير أن أفحصه لأن نظارته تزعجه! فسألته: ألهذا السبب استدعيتني؟ فقال: أجل، سيذهب معك الآن لتفحصيه. وكم أسعدني أنني انفجرت كقنبلة موقوتة منذ ربع قرن! لا أذكر بدقّة ما قلته، لكنّني لا أنسى تعبير الفزع والدهشة في عينَي كلٍّ من المدير والضابط. لم يعد في إمكاني ولا في إمكان أي مواطن سوري أن يتحمّل أشكال الذلّ وتنويعاته؛ ما معنى أن يُشحَط طبيب من عمله ليأتي كالعبد يقف أمام رئيسه الذي هو عبد للأجهزة الأمنية؟ قد تكون رحلة درب الآلام لا تطاق بالنسبة إلى السوريين، وقد يكون ثمن تحطُّم حاجز الخوف باهظاً، وقد تكون أخطاء فظيعة

ارتُكبت بحقّ الشعب السوري الذي يريده الجميع كبش فداء للدول العظمى، وهي عظمى حقاً في انحطاطها الأخلاقي، وبعض الدول العربية التي لا تمانع أن تتاجر بالدم السوري. بالتأكيد، يعيش الشعب السوري بين مطرقة النظام وسندان المعارضة التي ثبت أن جزءاً كبيراً منها لا يهمّه الشعب السوري، بل يهمّه إسقاط النظام حتى آخر قطرة دم سوري، ما عدا دماءهم طبعاً، لأنهم يقبضون ويعيشون ترفاً خيالياً، ويتشدقون على الشاشات بمعاناة السوريين. ما أنا واثقة منه، على الرغم من الجحيم السوري، وعلى الرغم من أن الشعب السوري أعزل في مواجهة مأساته، أن فجراً جديداً وُلد في قلوب السوريين وأرواحهم، وأنه لم يعد في إمكان أيّة قوة في العالم، مهما امتلكت أسلحة فتاكة ومهما هدّدت وتوعّدت، أن تعيد مارد الحرية والكرامة إلى القمقم. في آذار 2011 حين بدأت الثورة السورية الحقيقية، وحين وقفت ككثيرين نتفرّج على حريق مبنى (السيرياتيل) في ساحة الشيخ ضاهر، وحين كنا نسمع صوت الرصاص يلعلع تعقبه رائحة البارود الحريفة الخاصة، كنتُ أصعق إذ أشمّ رائحة زهر الليمون كما لو أنها تتحدّى الرصاص، رائحة الربيع يعبق بشذى الليمون علّمتني ما يعجز كلّ فلاسفة العالم وعلمائه أن يعلّموني إياه، وهي أن لا شيء قادر على اعتقال الحرية حين تتفجر في قلوب الناس، لأن الحرية والكرامة كالهواء والماء لا يمكن اعتقالهما. أنا في قلب وطن ينزف، ألتقي باستمرار أصدقائي الرائعين الذين يمثّلون نخباً ثقافية وفكرية ووطنية، وكلٌّ منهم سُجن على الأقل بين 8 أعوام و20 عاماً! وقد خرجوا من السجن وكلٌّ منهم موسوعة في الثقافة، وبعضهم من أهمّ المُترجمين والمفكرين في العالم العربي. هؤلاء الأصدقاء الرائعون أحسّ دوماً بأنهم سُجنوا نيابة عنا، وأنهم دفعوا الضريبة الباهظة نيابة عنا، وأكثر ما

يذهلني أنهم غير حاقدين على جلاديهم، لأنهم لا يريدون أن يعكّروا صفاء أرواحهم بالأحقاد. أصدقائي الرائعون سيكونون كالخميرة تؤثّر وتبدّل، لنعيد إعمار سوريا بعد مخاض عسير. وربما سنتمكن ذات يوم قريب أن نغني أغنية «يا شجرة الليمون يا عينيا»! يا رائحة زهر الليمون التي تتحدّى رائحة البارود.

أطفال النعمة

الزمن في سوريا لا يداوي الجراح، بل يصنعها ويبتكرها يوماً بعد يوم، وأكبر عنوان للألم السوري المُتجدِّد هم أطفال سوريا؛ فمن يتأمل وجوه أطفال سوريا في مخيمات اللجوء البائسة، أو يراقب وجوهَهم وعدسةُ الكاميرا تلاحقهم بهدف إعداد برامج عنهم تدرّ الملايين وهم مادة خصبة للربح، يُصَب بالذهول، إذ على الرغم من هول معاناة هؤلاء الأطفال، فإنهم لا يزالون قادرين على الابتسام وعلى اللعب، وعلى التحدث عن طفولتهم التي سُرقت منهم وحلّ مكانَها إحساسٌ دائم بالخوف والذعر. من يتأمل وجوههم بعمق يدرك أنهم أطفال نعمة، كانوا يعيشون تحت سقف ويلعبون مع رفاقهم في حديقة لم تُحرَق أشجارها، ولم تتحول إلى سور من الحواجز، أو كانوا يلعبون في باحة مدرسة وهم باللباس المدرسي الأنيق النظيف، وفي حقائبهم المدرسية كتب ودفاتر وقصائد فرح وسندويشات شهية. من يتأمل وجوه أطفال سوريا النازحين المُروَّعين من هول الإجرام، يرَ ما لا يُرى، إنه يرى أبعد من الواقع المُخزي الوحشي، يرى طفولة منطوية على ذاتها، مختبئة في دهاليز الروح العميقة، تقتات على ذكريات رائعة قُصفت بومضة عين. تشعر حينئذٍ أن هؤلاء الأطفال يتذكرون طفولتهم الآمنة كلَّ لحظة،

ينطوون على ذواتهم ويهربون من الواقع الذليل المهين، باستعادة ملامح من طفولة آمنة عاشوها ذات يوم وصارت بعيدة عنهم وكأن دهراً فصلهم عنها، لكنهم لا يزالون يحتفظون بأناقة أرواحهم الطاهرة، وفرح الطفولة الخام النقي، ولا يزالون على الرغم من الألم الشديد الذي يفوق قدرتهم على الاستيعاب – من حسن حظهم – أن يَعبُروا من عتبة الألم إلى عتبة الحلم، إلى عالم سعيد آمن عرفوه يوماً، حين كانوا لا يزالون يعيشون تحت سقف، ويستحمّون بماء ساخن، ويأكلون طعاماً لذيذاً، ويحلمون بمستقبل ومهنة وموهبة. تلك الذكريات الأشبه بالوشم لا تزال محفورة في ذاكرة أطفال سوريا، تُقوّيهم وتمدّهم بقوّة سحرية على تحمُّل ما لا يُحتمل ولا يُطاق. أطفال سوريا لا يحتاجون إلى دعمٍ من الكبار، ويستخفّون بكلِّ من يُعدُّ عنهم دراساتٍ وبرامجَ، ومن يتنطّح ويتفاصح لتقديم خطط لدعمهم نفسياً وتخفيف الآثار الرهيبة للمجازر التي شهدوها!

يحتمي أطفال سوريا بمخزون ذاكرتهم من موسيقا وقراءة ولعب وحلم، ليهربوا من وحشية الواقع والبشر، يستنهضون قوة مُذهلة من أرواحهم النقية نقاء نور فجرٍ يبدِّد ظلمات كثيفة، يرفعون نظرهم إلى السماء ويتجاهلون سرب الطائرات التي تقصف وترمي براميل مُتفجرة، ولا يرون إلا سرب عصافير تزقزق فرحاً بالحياة، يتظاهرون بأنهم يحتمون بخيمة، لكن مسكنهم الحقيقي طفولة بكامل بهائها وقوّتها لا تزال مختبئة وكامنة في قلوبهم الممتلئة بحب الحياة. القوة الحقيقية هي السعادة. من يحدِّق بدقّة في وجوه أطفال سوريا، يستكشف أرواحهم الحقيقية، وهي أرواح صامدة قوية وأنيقة، تشعّ من وجوههم نعمة وأملاً بالحياة. لستُ واهمة ولا أكتب إنشاء، لكن، بكلِّ نزاهة، أعترف أنه لطالما أذهلتني وجوه أطفال سوريا في مُخيمات النزوح،

أو وجوههم والعدسة تصوّرهم، وهم يحملون أكياساً وبقايا ألعاب ويسيرون في طرقات وعرة تحت القصف ووسط الجثث وأشلاء بشر. أتساءل: كيف لا يزالون يملكون القدرة على الوقوف والمشي وعلى التحديق في الكاميرا والابتسام، ابتسامة من يتجاوز الكارثة، من يترفّع عنها ويحتقرها ولا يعترف بوجودها؟ كيف أنسى منظر طفلة في الثالثة من عمرها، تسير خلف والدتها وإخوتها، يذرعون الآفاق سُدى، آملين بالوصول إلى مكان لا رصاص فيه ولا دبابات ولا براميل مُتفجّرة، تلك الطفلة توقفت للحظات لتُحكم وضع ربطة شعرها بعد أن سرّحته بأصابعها البضّة؟! لعلها كانت تتخيل مرآتها الصغيرة في بيتها الآمن قبل أن ينهار سقفه على مَن فيه، طفلة في الثالثة من عمرها تملك القوة لتمشي في طريق الحياة الوعرة، بعد أن شهدت المجازر. كيف أنسى هبة، الطفلة ذات السنوات العشر، التي حكت لي كيف شاهدت الصاروخ يهدم بيت جيرانهم في حلب، ودمعت عيناها وهي تصف لي القطّة الجميلة التي كانت تعيش معها في بيت آمن. هبة التي نزحت إلى اللاذقية وعاشت مع أسرتها في خيمة بائسة، لكنها تقرأ طوال الوقت وتحلم أن تكون طبيبة.

ليت العالم يتأمل وجوه أطفال سوريا، خاصة الذين يعيشون في مخيمات النزوح، سيرون ما لا يُرى، سيرون النعمة وأناقة روح طفولية لم تتشظَّ بالرصاص والأحقاد، سيدركون أيه قوة هي الابتسامة؛ الابتسامة التي تعني رغبتهم في البقاء على قيد الحياة وعيش حياة كريمة تليق بهم، واستعادة طفولة مُنتهكة من قبل العالم أجمع.

أطفال سوريا – أطفال النعمة – يفضحون بوجوههم السمحة الجميلة انحطاط العالم الأخلاقي، ويؤكدون مقولة إن السياسة وعمل رجال العصابات شيء واحد، أو وجهان لعملة واحدة.

الإجماع على إذلال السوريين

ما يحصل في سوريا من مجازر ودمار وأهوال يبدو للكثيرين غير إنسانيّ، فتلك الجرائم الفظيعة تبدو خارج مقدرة البشر وطاقاتهم، كما لو أن الشرّ المُطلَق النقيّ والخام قد استنسخ من نفسه مُسوخاً تقوم بكل هذه المجازر. والمؤسف أن كلّ سوريّ صار – واعياً أم غيرَ واعٍ – ينتظر أحداثاً إجرامية فوق العادة وتفوق قدرته على التصور بدل أنْ ينتظر خلاصاً! لم يعد من سوريٍّ يثق بالخلاص من الجحيم، بل كل ما يفكر فيه هو: هل سأنجو من قنص أو قتل؟ هل سيبقى فوق رأسي سقف يحميني من غضب السماء والأرض؟ ليس القتل الوحشي المبذول بسخاء في سوريا هو ما يُسمِّم حياة السوريين المتبقين على قيد الحياة حتى إشعار آخر، بل أساليب المعاملة التي لا يُمكن تفسيرها ولا إيجاد مبرر لها سوى إذلال السوريين. اضطررت منذ أيام إلى أن أسافر إلى بيروت عن طريق مركز الحدود في الدبوسية – لأن الحدود في بلدة العريضة كانت مُغلقة. كان الازدحام فظيعاً على الحدود لدرجة أن السائق انفجر بنوبة غضب ولعن ساعة موافقته على السفر، فوجئت أن رسم بطاقة الخروج من سوريا إلى لبنان قد قفز من 500 ليرة سورية إلى 1200 ليرة سورية! ووقفت في الطابور في انتظار ختم موظف الأمن

السوري، كانت تصحبني في سفري صديقة من طرطوس، ووجدتني أهدر الوقت بتأمل أفواج النازحين يهيمون على وجوههم تحت شمس آب اللهاب، ولن أنسى منظر طفلتين أختين، إحداهما في التاسعة من عمرها، والأخرى في الثالثة، الكبرى تحمل الصغرى وتسير ببطء، وقد تحول شعرهما إلى ما يشبه القشّ، من كثرة ما أحرقته الشمس، ولدهشتي كانتا تلبسان ثياباً بالية من الصوف، لم أستطع كبح فضولي، فهرعت إليهما وسألت الأخت الكبرى: من أين أنتما؟ ردّت: من ريف حلب. كانت وأختها مُخدّرتَين من التعب والذهول، كما لو أنهما لا تفهمان ولا تستوعبان لماذا تهيمان على وجهيهما مع أم أرملة تفوقهما ذهولاً وتعباً وتحمل صرّة صغيرة في يدها، وحين ربَّتُّ على كتف الصغيرة وسألتها: ألا تشعرين بالحرّ بسبب ملابسك الصوفية؟ ردّت بسخرية: ما عندي غيرها. صرخت بي صديقتي: أسرعي جاء دورنا. وقفنا مقابل موظف الأمن متجهّم الوجه الذي ما إن قدّمنا له بطاقتَي الخروج حتى انفجر بوجهينا – صديقتي وأنا – ورمى البطاقتين بنزقٍ في وجهي قائلاً: اذهبي واشتري بطاقتين غير هاتين البطاقتين! وبذلت جهداً جباراً كي أجبره أن يجيب عن سؤالي: لماذا علينا أن نشتري بطاقتين؟! فردّ بنزقٍ أكبر: لأنكما كتبتما بالحبر الأزرق، ألا تعرفان أنكما يجب أن تكتبا بالحبر الأسود؟! يا سبحان الله! يا للحجة الدامغة المُقنعة! وبمجهود أسطوري وعزيمة جبارة وإصرار ما بعده إصرار، أجبرته أن يجيبني عن سؤالي: طيّب، ما الفرق بين الكتابة بالحبر الأزرق أو الأسود؟ وإن كان لا بد من الكتابة بالحبر الأسود، ربما ليتماشى اللون مع حياتنا التي صبغ اللون الأسود كل تفاصيلها، فلماذا لم ينبّهنا ذلك الموظف الذي اشترينا البطاقات من مكتبه ورآنا نكتب بالحبر الأزرق؟ صرخ بي دون أن يبالي أنه يتكلم مع سيدة يقتضي الحد

الأدنى من اللياقة أن يعاملها بلطف: «لا تبدّدي وقتي! قلت لك هذه البطاقات لا تمرّ، يجب أن تكون بالحبر الأسود!». كان مئات السوريين حولي يتفرجون على مشهد الإذلال بعيون مُتعبة، وأمكنني أن أشعر بمشاعرهم كما أمكنني أن أحس بتعاطفهم، كلّنا في الهوا سوا، كلّنا نشعر أيه لعنة مُسلّطة على حياتنا. فكّرت في مهزلة عيشنا، ووجدتني أصرخ، ليس بوجه الموظف المُتجهم، بل بوجه العالم كله: لماذا هذا الإصرار على إذلال السوريين؟ ماذا لو صدر قرار بضرورة الكتابة على بطاقات مغادرة الأراضي السورية والدخول إلى الأراضي اللبنانية باللون البنفسجي أو بالأخضر، عندئذٍ سيشعر كلّ مواطن أنه وزير! فالوزراء وحدهم يخربشون بالقلم الأخضر، أو ربما يصدر قرار بأن يُكتب كل حرف أو رقم بلون مُختلف؟ مهلاً! يصدر القرار من دون أن يعرف المواطن، هكذا تكون الحياة مُثيرة أكثر، إذ لم يتبقَّ للسوري من إثارة وتجديد في حياته سوى إثارة الخوازيق اليومية، القتل، الدمار، غلاء الأسعار الأسطوري، الانهيار المُروع لليرة السورية، تعقيدات السفر... كل سوري يشعر أنه يعيش في قفص، بتعبير أدقّ: في قنٍّ للدجاجات، لا يعرف متى سيكون دوره في الذبح – كما الدجاجة. المهم، لا بد من الاعتراف بأن ثمة مُعجزات تحصل في سوريا، إذ وجدت السائق يتدخل ويرجو موظف الأمن أن يسامحنا على جرم غير مقصود، وهو الكتابة على بطاقة الخروج بالحبر الأزرق، ويا للعجب! ردّ الموظف: القانون لا يحمي المغفلين! ورغماً عني ضحكت من تلك المهزلة المُتكاملة التي نسمّيها عيشنا! لكن السائق استمر في الترجّي والتذلل، وقال للموظف: هذه المرأة طبيبة عيون يمكنها أن تقدم لك ولأسرتك خدمات كثيرة، فتحقّقت المعجزة وقبِل البطاقتين. فكّرت، وأنا أعبر الحدود مهدودة القوى من الإحساس بالذلّ أكثر من حر آب

اللهاب الخانق، وصورة الأختين الطفلتين بالكنزات الصوفية تهيمان على وجهيهما لا تفارق خيالي: هل حقاً المشكلة في الحبر الأزرق أم الأسود؟! أية تفاهة لا يقبلها العقل ولا المنطق ألا تُقبل بطاقة أشتريها على الحدود، لمجرّد أنني كتبت بالأزرق بدل الأسود؟ وهل يحتمل الجحيم السوري هذه التفاصيل التافهة؟ وإذا كان الإصرار على تأليه اللون الأسود في سوريا وتطبيق القانون وعدم خرقه، ومحاربة الفساد خاصة حين يتجاوز المواطن القوانين، فلماذا سمح لنا الموظف نفسه بالمرور، بعد أن استجداه وتذلل إليه سائق في عمر أبيه؟ هل الغاية دفع ضريبة لا بد منها من الذل اليومي كي يعيش السوري حياة فاقت جحيم دانتي بقسوتها؟ وفي لبنان الشقيق، أيّ عارٍ أن تقرأ بعض اللافتات ممنوع تجول السوريين بعد السادسة مساء!

أنا لا أتهم بالتأكيد كل اللبنانيين بتلك العنصرية المخجلة والمُهينة، لكن وجود لافتات كهذه يدل على أن شريحة من اللبنانيين ترفض رفضاً صريحاً مدَّ يد العون والمساعدة لإخوتهم السوريين، ويتعمدون إهانتهم وإذلالهم. أي إحساس مُهين حين يرفض كلّ الصرّافين في لبنان الليرة السورية، بل ما إن يمدّ لهم السوري بأوراق العملة السورية حتى يسارعوا إلى الرفض القاطع بحجج عديدة لا يهمّ تفنيدها. ألم يعرض تلفزيون الجديد صور ضابطٍ لبنانيّ يملك سوطاً أو حزاماً يسوط به السوريين الواقفين لساعات في الحَرّ والعراء، كي يدخلوا الأراضي السورية، ليعيّدوا مع أهلهم وليتفقدوا بيوتهم إن كانت لا تزال بيوتاً أم صارت أنقاضاً؟ ألم يرَ العالم كلُّه كيف ينهال سوط الضابط اللبناني على أجساد مواطنين سوريين؟ سيُقال إنها حالة فردية واستثنائية كالعادة، لكن لو كانت حالة استثنائية فكيف نفسِّر وجود موظّف لبنانيّ وحيد يُسيِّر أوراق كلّ هؤلاء المواطنين السوريين،

بينما المقاعد بجانبه خالية، أين بقيّة الموظفين؟ أليست الغاية إذلال السوري وتركه ينتظر ساعات على الحدود؟

في كلّ سفر أتأمّل بقلب مُنكسر كيف أن حياة السوريين تسير إلى الهاوية، هاوية بلا قاع، كلّ سفر تكون جرعة الذلّ أكبر وأكثر تنوّعاً، كما لو أن غاية العالم كله ليس تدمير الحجر فقط، بل كسر أناقة الروح وكرامتها وتمريغها في وحل الذلّ. إن ما يتحمله السوري يفوق الوصف، ذلك أنها، بكل بساطة، حرب شعب عظيم وأعزل وممتلئ كرامةً وتوقاً للحرية، مع طاقم مخيف ومرعب ممّن يسمّونهم صنّاع القرار.

الإفراط في الموالاة

من حقّ كلّ مواطن أن يكون موالياً أو معارضاً أو محايداً، أي ليس موالياً ولا مُعارضاً، وبما أنني غارقة تماماً في الشأن السوري، وأحضر نقاشات تفوق وتتفوق بمراحل على برنامج «الاتجاه المعاكس»، فيمكنني أن أُشبّه النقاش والجدل بين السوريين – تجاوزاً – بصراع الديكة: كلُّ طرفٍ يريد إقناع الآخر بوجهة نظره ورؤيته للواقع، ويريد إجباره بكلّ الطرق على الاقتناع بأنه، وحدَه، مَن يملك الحقيقة ومَن يدرك ما يحصل على الأرض. ويصل النقاش إلى حدود التخوين والشتائم والقطيعة في غالب الأحيان، حتى أنني كنت شاهدة ذات مرّة على جدل مثقفين – تجاوزاً أسمِّيهم مثقفين – همّوا أن يضرب بعضهم البعض الآخر، لأن أحدهم يؤمن بأن هناك مؤامرة على سوريا، والآخر لا يصدق أن هناك مؤامرة. غالباً ما أكون متفرجة أتأمل بخزيٍ وحزن ويأس إلى أيّ حدٍّ وصل السوريون من كره كلّ طرفٍ للآخر، كما لو أن علاقاتنا الإنسانية والوجدانية بعضنا مع البعض الآخر، كمواطنين سوريين، قد اختُزلت إلى عبارة وحيدة: هل أنت مُوالٍ أم مُعارض؟ وعندئذٍ أصنِّفك: صديقاً أو عدوّاً! للأسف، تحوّل كثيرٌ من الإخوة إلى الإخوة الأعداء، بسبب مواقفهم المتباينة مما

يحصل في سوريا، وبسبب صراخهم الهستيري: هل ما يحصل ثورة أم مؤامرة؟ وينتهي الأمر بحذف كلّ ذكرياتهم الجميلة الممتدة على مدى سنوات أعمارهم، ويحدّق كلٌّ منهما في الآخر بكُرْهٍ وحقد وتحلُّ القطيعة. أظنُّ أن هذه المواقف هي الخسارة الأعظم في سوريا، بلد المحبة والتعايش. من دون مبالغة، أعترف أن سوريا كانت البلد العربي المثالي من حيث التعايش والمحبة بين أبناء الطوائف والأديان المُختلفة، ولطالما استشهدت بحالة رائعة وصورة تفتنني: امرأتان تجلسان في مقهى على البحر، إحداهما محجّبة والأخرى سافرة، تلبس بلوزة من دون أكمام وتنّورة قصيرة، وكلٌّ منهما تحبّ الأخرى وتحترمها، لأن أساس علاقتهما إنساني ووجداني. الآن هناك من يزرع الفتن بين الناس، ومن يصوِّر كلَّ طرف عدوّاً للآخر ويكفِّره ويخوِّنه. لستُ بصدد مناقشة هذه الظاهرة الآن؛ فقد أُشبِعَت تحليلاً، وأعتقد أنها وليدة مرحلة معينة وليست متجذّرة في النسيج الاجتماعي السوري على الإطلاق. لكن ما يذهلني حقاً هو هؤلاء المُفرِطون في ولائهم للنظام بشكل أعمى، بشكل لا يسمحون فيه لأحد بأن يناقشهم بفكرة أو حتى بأن يسألهم توضيحاً. ولاؤهم للنظام أكثر من ولاء النظام نفسه لذاته! لقد اعترف النظام مثلاً بأنه ارتكب أخطاء، أما هؤلاء المُفرطو الولاء فيرفضون هذا الاعتراف، ويصرّون على أن النظام مُحقٌّ في كل شيء قام ويقوم به، ويا ويل من يحاول خدش قناعاتهم أو طرح بعض الأسئلة عليهم! الإفراط في الموالاة حالة تستحق الدراسة حقاً لدى كثير من السوريين، وتستحق أن نكلّف بهذه الدراسة جمهرةً مميزة وعبقرية من الأطباء النفسيين ليشرحوا لنا هذه الحالة، إذ يتفوّق المُفرط في الموالاة على النظام الموالي له! ولا أملك من أدوات وخبرة في التحليل النفسي الاجتماعي سوى سرد تلك القصة الواقعية

المفتاحية – كما أحبّ أن أسميها – لأنها تعكس تماماً حقيقة تلك الظاهرة المُنتشرة بكثرة في المجتمع السوري. وإليكم القصة أرويها بكل نزاهة ومن دون تعليق: صادف أن أحداً من معارفي، وهو رجل في الخمسين من عمره، مُفرط الولاء للنظام ويعبد الرئيس بشار الأسد، وكلّ كتاباته على الفيس بوك تمجيد للنظام الحاكم في سوريا، ولا يقبل أيّ نقد على الإطلاق لممارسات النظام، ويجد دوماً مبررات جاهزة لكل ما يقوم به النظام. وحتى حين نقول له إن النظام اعترف مراراً بأنه ارتكب أخطاء، يصرخ غاضباً: «أبداً، لم يرتكب أي خطأ!». صادف أن هذا الرجل الناجح جداً في عمله كمهندس نظيف اليد ولم يتورط أبداً في حلقة الفساد، مع أن منصبه كان يسمح له بأن يبلع الملايين كغيره ممن يعتبرون الرشوة شطارة، هذا الرجل المُفرط في الموالاة، صادف أنه كان يقود سيارته منذ أيام، واستوقفته شابة في الطريق كانت قد أضاعت محفظة نقودها، وطلبت إليه بكل أدب أن يوصلها بطريقه إلى بيتها. رحّب بها بكلّ لطف – فهو رجل لبِقٌ ومُتحضّر – وفي أثناء الطريق تجاذبا أطراف الحديث وصُعق بأنها معارضة للنظام بشراسة، ولم يُصدّق أن شابة لا يتجاوز عمرها خمسة وعشرين عاماً تجرؤ على أن تعبّر عن أفكارها أمام غريب! وأية أفكار! نظر إليها كأنها وباء قاتل، وتردّد؛ هل يقذف بها من السيارة أم يوصلها كما طلبت؟ وانتصرت نخوته فأوصلها إلى بيتها. وعاد إلى بيته مُروَّعاً ومصعوقاً ومُبلبَلاً كما لو أن شرّاً وشيكاً سيحلّ به، ولم ينم لحظةً، إذ إن فرائصه صارت تتقصّف رعباً وذعراً، وسمع صوت اصطكاك أسنانه من هول الذعر الذي يعيشه، وأحسّ بتسارع دقات قلبه من الفزع، لدرجة أنه شعر بأن قلبه سوف يكسر قفص أضلاعه ويفرّ خارج سجن الأضلاع، وبدأ ينهال على أصدقائه باتصالات متلاحقة كي يطمئنوه أن لا خوف من

اعتقاله، بسبب تواصله لدقائق مع شابة مُعارِضة للنظام! كان مرتعباً من احتمال اعتقاله! فكيف يكون في سيارة مع فتاة مجنونة تعلن علناً أنها مُعارضة؟ وحاول أصدقاؤه طمأنته، وانزعج منه كثيرون لأنه لم يراعِ الوقت واللباقة واتصل بهم في الثالثة بعد منتصف الليل! حتى أن أحدَ أصدقائه صرخ به: «يا أخي شو أنت ارتكبت جريمة؟ طيّب شو عرّفك هالبنت مُعارضة؟». فردّ مُرتعباً: «كان يجب ألا أستجيب لطلبها، وألا أسمح لها بالركوب إلى جانبي، ما أدراك؟ فقد تكون مُراقَبة! قد تكون خطيرة جداً!». ضحك صديقه وقال: «ما وجه الخطورة في شابّة لا تتجاوز العشرين إلا بسنوات قليلة؟! اسمع، هل هي جميلة؟» انهار المسكين وصرخ بصديقه مُعاتباً واتّهمه بالاستخفاف بمصابه، ثم رجاه أنه في حال اعتقاله بتهمة أنه تواصل مع تلك الشابة المُعارضة، أن يُحضِر إليه في سجنه الأغراض التالية: كذا وكذا، وأهمّ تلك الأغراض الحبوب المهدّئة والمُنوّمة. أظن أن أفضل تعليق على تلك القصة هو: «من دون تعليق» – كما يكتبون تحت رسوم الكاريكاتور التي تفقأ العين والعقل بالحقيقة. ولكن السؤال الذي يفجّر أرواحنا المدفونة في الصمت: أيّ إفراط في الموالاة هذا القائم على الترويع الذي يصل إلى حدود الذعر المرَضيّ من أجهزة الأمن؟! أيّ إفراط في الموالاة أساسه الخوف الجنوني من القوة؟ وهل للقوة، كقيمة مطلقة، من قيمةٍ إن لم تكن قوة حقّ؟ أي رجل مسكين هذا مُفرط في الموالاة ومذعور لدرجة أن يتوقع اعتقاله في أيّ لحظة لمجرد أنه أوصل فتاة بسيارته؟! فتاة تتجرأ وتعلن أنها مُعارضة؟! الأفضل أن أختم من دون تعليق!

الشاحنة

ليس تخيُّلاً، ولا مشهداً من فيلم سينمائي، ولا كابوساً، ولا حلم يقظة. المشهد حقيقة فاقعة واضحة، منظر شاحنة محمّلة بجثث وبقايا جثث، للمجاهدين والمتدفقين إلى كسب وقراها عبر الحدود التركية، لا يهمّ ماذا نسمّيهم: عصابات، مجاهدين، قتَلَة مأجورين، سلفيين، لكنهم ليسوا بالتأكيد حيوانات، ولا أضاحي عيد مذبوحة تُنقَل من المسلخ إلى دكان اللحام أو توزَّع على الجمعيات الخيرية. إنهم بالتأكيد بشر كأيّ إنسان، إنسان خُلق على صورة الله ومثاله، كما تتفق كلّ الأديان. منظر الشاحنة المحمّلة بالجثث المشوهة وبقايا جثث هؤلاء الشبان الذين قُتلوا في معركة كسب، تجوب بعض شوارع اللاذقية كي يتفرّج الناس على مصير كلّ من يتجرّأ ويدخل إلى سوريا بغاية تدميرها وقتل السوريين وقلقلة النظام. منظر يفوق قدرة بشريّ على التحمّل، فاللقطة تصلح لفيلم رعب من الطراز الأول. كان الناس ذاهلين واقفين في الشارع، وبعضهم يحمل طفله بين ذراعيه كي يشارك الطفل في فيلم الرعب، وكي تنطبع تلك الصورة في تلافيف دماغه كالوشم إلى الأبد. الشاحنة تستعرض حمولتها من جثث الإرهابيين، وتتباهى بأن الجيش السوري قضى على هؤلاء المخربين المجرمين، وتعرض على الناس أشلاءهم!

أعترف بعجزي عن تحليل هذا المشهد المروّع، ربما عليَّ أن أستنجد بفرويد ويونغ، وبكل ما كُتب من علم نفس وتحليل نفسي، كي أستطيع التعبير عن الأذى النفسي المُدمر والمروع لتلك الشاحنة التي تستعرض حمولتها من الجثث، لشبّان، لبشر، لإنسان هو صورتي ومرآتي، وهو يوشوشني بمصيري أيضاً، يُشعرني بطريقة ما بأنني في المقلب الآخر يُمكن أن أتبادل الأدوار مع هؤلاء الجثث الطازجة، أو ما تبقى منها. لا أعرف ما الغاية من استعراض جثث هؤلاء الشبان، مهما كان تصنيفهم وتقويمهم – حتى لو كانوا من أعتى المجرمين؟! ما الغاية أن يجري استعراض جثثهم والتجوال بها عبر شاحنة في العديد من شوارع اللاذقية، كما لو أن المواطن السوري لم يُروَّع كفاية، ولم تطفح ذاكرته خلال أكثر من ثلاث سنوات بصور آلاف القتلى والمذبوحين والمقابر الجماعية والمجازر الجماعية، كما لو أن المواطن السوري يحتاج وهو في قلب مأساته إلى استعراض يشبه السيرك المتجول، لا بهدف ترفيهه قليلاً وعرض سعادين خفيفة الظل تقوم بحركات مُضحكة على ظهر شاحنة، بل ليُؤكد له بالنظر والسمع والرائحة الخانقة للجثث أن هذا مصير الخائن ومن يتجرأ على المساس بسوريا قلعة الصمود والتحدي والعروبة. لا يدرك صاحب فكرة شاحنة الجثث أن هذا المشهد الوحشي أشبه بالمرآة، فهؤلاء القتلى الشبان هم في المقلب الآخر يمكن أن يكونوا آلافاً من جنود الجيش العربي السوري، قُتلوا على يد من يقاتلونهم، قتل مقابل قتل، جثث تنطح جثثاً، شاحنة تجوب شوارع اللاذقية بجثث شبان اكتسحوا كسب وغيرها من القرى، لكن عرض جثثهم بتلك الطريقة الاستعراضية يولد ارتكاساً مزدوجاً في ذاكرة المتفرج، إذ يشعر أن هؤلاء صورة لمصير الشبان السوريين المقاتلين، يا لذهول الخزي والقرف ونحن نشهد

استعراضاً للموت في اللاذقية! الفن الوحيد المتبقي لدينا هو فنون الموت، ومعارض الفن الوحيدة الممكنة هي معارض لجثث شبان. أما أية بلاهة وغباء يتمتع به بعض الأهل الذين كانوا يحملون أطفالهم بين ذراعيهم ليتفرجوا على استعراض شاحنة الموت، فلا أعرف كيف أصفه؛ ربما أصابهم البله أو العته من هول ما عانوا وشهدوا طوال ثلاث سنوات، وقبلها خلال عقود من الذعر الصافي والهلع المتسلل إلى رئاتهم عبر الهواء.

لم يعد لدى السوري أدنى شك في أنه صار حقل تجارب لشياطين العالم، تعبير الألم المزمن والتحمل واليأس يشم وجوه السوريين كالوشم الذي تُوشَم به الخراف قبل أن تقاد للذبح، وتنويعات اليأس والقنوط والإحساس باللاجدوى أصبحت هي القاسم المشترك بين السوريين مهما اختلفت انتماءاتهم وولاءاتهم، فالكلّ خاسر، والكلّ ذاهل من فظاعة ما يجري ووحشيته، والكلّ يشعر بأن الموت أقرب إليه من الحياة التي لم تعد تشبه الحياة في شيء، بل إن الموت الطبيعي أصبح قمة الرفاهية في سوريا، أن تقرأ ورقة نعي لشخص مات من دون رصاصة استقرت في قلبه، أو سكّين حزّت عنقه، تُشعرك بدهشه وغرابة. قال لي أحد المتفرجين على استعراض شاحنة الموت: أحسست بدوار، كما لو أنني أشهد نزوة مجنونة للشيطان، وخفت على ابني الذي لم يكمل الخامسة من عمره من أن يجنّ حين سألني: هل هؤلاء بشر حقيقيون أم دمى! طفل دلّته غريزته وطفولته، التي سُتخرّب وتُنتهك رغماً عنه، أن يحمي نفسه من هول ما يرى بأن هؤلاء القتلى ليسوا بشراً ولا إنساناً ولا حتى حيوانات، بل دُمى، أو شخصيات كرتونية تموت وتتمزق، ولكنها سرعان ما تلحم أجزاءها وتتحرك وتعيش.

لم يعد في سوريا حياة، فحياتنا مطمورة تحت أكوام من الجثث

والدمار. لكن أكثر ما يحرق قلبي ويُروّعني هو ما مصير أطفال سوريا الذين يُقدّمون قرابين للشيطان، أيّ أذىً نفسيّ مدمّر تسبّبت به شاحنة الموت، التي تستعرض حمولتها من جثث شبّان، في أرواح هؤلاء الأطفال الذين أراد العديد منهم أن يحمي نفسه من الجنون بالاعتقاد بأنها دمى، غير عارفين أن العالم كله يتعامل مع السوريين كدمى يتسلّى بها وليس كبشر يحترم إنسانيتهم، وحقّهم في الحياة الكريمة.

الاقتلاع من الجذور

تحضرني وجوه صديقات سوريات رائعات، توطّدت صداقتي معهن في سوريا. لم يجمعنا الطب فقط، بل نشاطات ثقافية وأدبية عديدة. صديقات من حمص وحلب ودمشق وغيرها من المدن، بعثرتْهن الأزمة السورية نازحاتٍ في بلاد الله الواسعة. وحين تهاجمني ذكرياتي معهن قبل نزوحهن أحسُّ بالألم يضرب رأسي كمطرقة، وأجد صعوبة بالغة في إيجاد خيط وصلٍ بين ما كنّ عليه وما صرن إليه. لم أكن أعلم أن مجرد دفترٍ صغير يضمّ أرقام هواتفهن كافٍ لبلبلتي وتفجير ألمي بهذا الشكل. لم أعد قادرة على أن أتصل بهن إلى بيوتهن في حلب أو حمص أو دمشق، فالبيوت قُصِفت وتهدّمت، وخطوط الهاتف الحنونة تقطّعت، وأصبحت شاشة باردة تجمعني بهن، وخاصة السكايب والفيس بوك. لا أنسى ذلك اليوم حين حاورتني صديقتي من حلب، في منتدى الأطباء، وهو نادٍ اجتماعي يقوم بنشاطات ثقافية عديدة، كان الحضور مميّزاً وكثيفاً، ثم سهرنا حتى الفجر في مطعم كان قصراً في أحد أزقة حلب القديمة، وكانت صديقتي قد حجزت لي في الفندق السياحي حيث التقطنا صوراً عديدة في بهو الفندق مع أصدقاء. عليَّ أن أتحمل صفعة الحقيقة وأقبل أن كلّ تلك الأمكنة في حلب دُمِّرت،

وأنني استيقظت ذات فجر، وما إن فتحت صفحتي على الفيسبوك حتى وجدت صديقتي قد وضعت صورتين من دون أن تعلِّق بكلمة؛ صورتنا في الفندق السياحي مبتسمتين، وصورة الفندق حطاماً بعد تفجير ساحة الجابري في حلب. كنتُ أتمنّى ألا أصدِّق ما تراه عيني، كنت أتوسّل الوهم أو الجنون كي يرحمني من وجع الصحو وقسوة الحقيقة. وحين هممتُ أن أعلِّق على الصورتين، أحسست بشلل في يدي وعجزت عن كتابة كلمة. لا يمكن أن أنسى وجه صديقتي الحلبية يوم نزحتْ إلى بيروت، كيف يمكن لوجه يحمل الملامح نفسها أن يصير وجهاً آخر؟ لم يكن وجهها في بيروت هو وجهها في حلب، كان وجهها هو وجه الصدمة أو الجرح، وقالت إنها تطلب من أولادها أن يحفزوها كي تتكلّم، كي لا يبتلعها صمت الذهول من الانقلاب الذي حصل في حياتها. نُسف مخبرها واضطرّت إلى أن تترك بيتها ومدينتها، وأن تلجأ إلى بيروت، حيث بدأت معاناة جديدة؛ فلم توفَّق بعمل، وكانت تقضي ساعات طويلة في البحث عن دول تقبل أن يهاجر إليها السوريون. وبعد إقامة لأكثر من سنة في بيروت، من دون عمل، وهي تتابع الجحيم السوري خاصة في حلب، هاجرَت إلى هولندا، لتبدأ مرحلة جديدة في تعلُّم اللغة الصعبة وقبول أن تكون لاجئة سورية في هولندا، كما لو أنك تنزع نبتة من أرضها وتقتلعها من جذورها لتزرعها في أرض غريبة. في كل مرة أتحدث معها على السكايب، وعلى الرغم من أناقة بيتها في هولندا، فإن عينيَّ ترفضان أن ترياها في واقعها الجديد. أجدها دوماً في حلب الشهباء، في بيتها ومخبرها، وفي سينما حلب حيث شاركنا في نقاش أفلام سينمائية عديدة، منها فيلم «باب المقام» لمحمد ملص. في كل حديث لي معها أجدني أغرق في حاله عجيبة، إذ أكرِّر بيني وبين نفسي أرقام هواتفها في حلب، كما لو أنني أدقّ مسامير في جدران

متصدّعة لإصلاحها. يا للأشكال الغريبة التي يتجسّد فيها الحنين! حتى كتاباتها وتعليقاتها الذكية والطريفة على الفيس بوك تنتهي دوماً بالحنين إلى حلب، بوجع الانسلاخ عن وطن هو نحن وهو كل سوري اضطر إلى النزوح أو لم ينزح بعد.

صديقتي من حمص طبيبة أسنان، لطالما زرتها في بيتها الملاصق لكنيسة أم الزنَّار، وعيادتها في الرستن، ولطالما حضرنا معاً وشاركنا في نشاطات ثقافية واجتماعية، كان آخرها دعوة وجّهها إليَّ النادي الأورثوذوكسي، وكانت صديقتي الرائعة وزوجها يشرعان أبواب بيتهما وقلبيهما لكلّ الأصدقاء. كنت أشعر أنني في بيتي، وأغبط سكان حمص على اهتماماتهم الثقافية ونشاطاتهم التي لا تتوقف طوال العام. اضطرت صديقتي إلى النزوح إلى أمريكا مع أسرتها تاركة بيتها الذي يمطره الرصاص والهاون، وعيادتها التي دُمِّرت في الرستن، وكنت أتابع ما تكتبه على صفحتها على الفيسبوك، وأجد فيه وجع الانسلاخ عن حمص، وأتحدّث إليها من وقت إلى آخر. وحين ينقطع الكلام أجدني أكرر كببغاء أرقام هواتفها في حمص، كما لو أنني أريد أن أخلق تعويذة ما أو أماناً من نوع خاص، بأن مجرد تكراري لأرقام هواتف صديقاتي النازحات يعني أنهن ما يزلن في سوريا. لكن هل أنا ما زلت في مدينتي؟ هل أنا أنا واللاذقية هي اللاذقية؟ ألم أتشظَّ أنا أيضاً من الألم؟ ألم تصبح اللاذقية مدينه مُقطّعة الأوصال بالحواجز؟ ألم تُفرَش جدرانها بصور الشبّان السوريين الذين ماتوا بالآلاف؟ ألم تغرق شوارعها بالنازحين من حلب وحمص وغيرهما من المناطق المنكوبة؟ ألم يشم اليأس وجوه كل السوريين، حتى تكاد سحنة اليأس توحِّدهم؟ ألم أنزح عن نفسي ومدينتي أيضاً حين يضطرّ كل أحبّتي إلى النزوح والهجرة؟ ألم أعش في قوقعة وقد أصبح السفر من مدينة إلى

مدينة مغامرةً محفوفة بخطر الموت بالرصاص أو بالسكين أو السيف، أو الخطف؟! من سأزور في حلب التي تُدمَّر بوحشية؟ من سأزور في حمص والرستن؟ صديقاتي من حلب وحمص ودمشق لم ينزحن وحدهن، بل نزحت روحي معهن. يمكن للإنسان أن يكون غريباً في وطنه ونازحاً أيضاً في وطنه. لقد تحول الوطن إلى قوقعة، كل مواطن يأوي إلى قوقعة ألمِه وعزلته وجرحه، وصار أحباؤنا في بلاد غريبة تُحسن إلينا لأننا صرنا شعباً منكوباً. أيّ عارٍ أحسّه وأيّ قهرٍ فظيع أشبه بحلقةٍ من حديد تهرس حنجرتي أحسّه، حين أتأمل وأفكر في أن نخبة السوريين صاروا لاجئين في دول أوربية تتحنّن عليهم بحفنة من المال، وتسمح لهم بأن يناموا تحت سقفها الذي لا يمطره الرصاص والهاون والبراميل المُتفجرة! تُرى، أيّ وجعٍ مُهين أكثر من وجع الانسلاخ عن وطن وبيت وعمل كان يُشعرنا بكرامتنا، لأنه من عرق جبيننا وعلمنا، وأن يصبح كثيرون من نخبة السوريين مجرد لاجئين تحت رحمة الدولة المُتصدّقة عليهم ووصايتها!؟ ليس الخراب هو دمار الحجر فقط، وليس الموت هو توقّف القلب عن الخفقان، الموت الطبيعي لا يُهين، فهو مصير كلّ حيّ، لكن الدمار الأكبر والموت الحقيقي هو إذلال النفوس الأبية وسحقها وإجبارها أن تحني قاماتها السامقة، لغدر السَّفَلة وتجّار الدم السوري وسماسرته. حين أجلس في قلب الليل، أقدّر الزمن هنا والزمن هناك في العالم الغريب الذي نزحت إليه صديقاتي، أشعر أنني أتغرّب عن نفسي وأنني لم أعد أنا أيضاً في سوريا، بل في مكان يصحّ أن أصفه بالجحيم. أشعر أنني عاجزة عن النوم، بل يأتي الليل ليدثّرني. ليل سوريا بلا نجوم ولا قمر، ليل فاحم السواد لأن قلوب السوريين احترقت من ألمٍ يعجز إنسان عن تحمُّله. في قلب الليل أستحضر وجوه صديقات سوريات رائعات اضطررن

إلى النزوح، ولم يبقَ من عالمهن الذي شاركتُهن به في سوريا إلا أرقام هواتف أردّدها بيني وبين نفسي وأنا أبتلع دموع القهر. ربما أشعر أن تلك الحياة الجميلة والنشاطات الثقافية والاجتماعية وضحكاتنا الصاخبة وصورنا في بيوت ومقاهٍ وفنادقَ قبل أن تدمَّر، ربما أشعر أن كل تلك الذكريات الحلوة المُشبعة بالحياة مطمورة في أرقام هاتف.

الأولوية السورية

دلّت الإحصائيات الأخيرة المنشورة أن هنالك 65 مليون شخص نازح حول العالم من جنسيات مُختلفة، وتحتل سوريا المرتبة الأولى، إذ يشكّل السوريون الحصّة الأكبر من هذا الرقم المُخيف، وتأتي بعدها باكستان ثم الصومال. كما دلّت إحصائية أسعد شعوب العالم وأكثرها تعاسة وحزناً أن الشعب السوري يحتل الأولوية أيضاً في الحزن والتعاسة. أكتب هذه الإحصائيات التي أظن أن كثيرين يعرفونها، لأن الأزمة السورية دخلت عامها السادس وليس هناك أيّ أفق لحلّ سياسي، وما نشهده على الأرض ينافس ما تعرضه أفلام الرعب في هوليوود، الذُّلّ هو عنوان حياة الإنسان السوري، فهو ذليل في المعاناة من الانقطاعات المتتالية للكهرباء، لفترات طويلة، وهو ذليل في انهيار الليرة السورية والغلاء الفاحش للبضائع، إضافة إلى فسادها، والأهم أنه ذليل تحت وطأة الفساد المشرِّش في سوريا منذ أكثر من خمسة عقود، والأهم من كل ذلك هو تحطّم الأمل في نفوس السوريين، وإذا تابعنا أيّ حديث عادي بين أصدقاء في سوريا، فسنجد أن كلّ الحديث عبارة عن تقليب مواجع مروّعة، وذكر حوادث عجيبة وظالمة. أذكر مثال رجل من حلب في الخامسة والأربعين من عمره، هجّ من حلب

المحترقة إلى اللاذقية، وفتح دكّاناً يُصلح فيها السجاد العتيق (وهي مهنته أصلاً) ويعمل معه أولاده، ولم يعرف سبب استدعائه إلى التحقيق واعتقاله، فلا أحد يعلم شيئاً في سوريا، وقصد أهله محامياً نصّاباً متخصّصاً في التقصّي عن المعتقلين، فأخبرهم أنه يستطيع إطلاق سراحه بعد خمسة أيام، إذا دفعوا ثلاثة ملايين ليرة سورية، فباع أهله أثاث المنزل وسيارتهم العتيقة، وأمّنوا المبلغ للمحامي، وفعلاً أُطلِقَ سراح الرجل الأربعيني، لكنه فوجئ بعد أيام بعناصر من الشرطة تداهمه في دكّانه وهو يُصلح سجّادة، وتسحبه «موجوداً» لخدمة الجيش كاحتياط! فصرخ بهم: يا جماعة قدِّروا عمري، فأنا تجاوزت الخامسة والأربعين! (ومن المعروف في سوريا أن مَن تجاوز سنّ الأربعين لا يُطلَب إلى الخدمة الاحتياطية). لكنهم قالوا له: عليك أن تنفّذ الأوامر.

تنويعات القهر السوري لا تُحصى، ويمكن أن تؤلَّف حولها موسوعات. وبالمناسبة، طلب مني طبيب شاب أن أذكر قصّته، إذ كان لديه صديق حميم ناشط على الفيس بوك، جرى اعتقاله وأُخرِجَ جثّةً من المعتقل، فما كان من صديقه الطبيب إلا أن وضع مجرد صور صديقه على صفحته على الفيس بوك، فاعتُقِل أيضاً ثلاثة أشهر مع التعذيب. أهذا ما كنا نأملُه بعد ستّ سنوات من الثورة السورية؟! أهذه هي الإصلاحات الموعودة؟

الرّشا على الحدود السورية اللبنانية بالملايين، والحواجز المتكاثرة، كبذور البقلة، كلّها تطلب الرشوة من السائقين كحقٍّ لها، والبيوت في كسب وصلنفة وغيرها من القرى والمدن، التي عفّشتْها (سرقتْها) اللجان التي لها تسميات عديدة، كلّها توحي بأن (حاميها هو حراميها). لكن من جهة أخرى، وربما الأشدّ ألماً، أن تجد أن هذه الظروف البالغة الوحشية واللاإنسانية قد عطبت عقول كثيرٍ من الناس،

فزادتهم تشنّجاً وتطرّفاً، وأحبّ أن أشير هنا إلى الروايات الرائعة للكاتب الجزائري ياسمينا خضرا، الذي برهن في كلّ كتبه أن السبب الرئيس للعنف هو الظلم، والسبب الرئيس للجهل والتطرف أيضاً هو الظلم. أيّ خزيٍ أحسستُه حين أخبرني أحد أصدقائي في حماة بأنه قصد تاجراً يفهم بأجهزة البيانو، وطلب إليه أن يصلح قطعة انتزعها من البيانو لأنها معطوبة، فرفض التاجر أن يصلحها بذريعة أن الموسيقا والآلات الموسيقية حرام! منذ متى كنا نجد نماذج من التخلف والتعصب الأعمى هكذا في سوريا؟ وأظن أن العار كلَّ العار تتحمّله الفضائيات في قسم كبير منها، فالبرامج الدينية التي تقدَّم فيها، ثم فتح المجال للمشاهدين لطرح الأسئلة وطلب الفتاوى، مخجلة من تخلّفها وسطحيتها. هل يُعقل أن تسأل مشاهِدةٌ أحدَ الشيوخ الذي يحقّ له الإفتاء: ما هو رأي الدين الإسلامي بنزع الشعر الزائد من جسم المرأة باستخدام شفرة الحلاقة؟! والشيخ الفاضل يردّ بجواب أخجل من كتابته. هل هذه حياة؟ أليس علينا أن نعيد تعريف الحياة في سوريا؟ هل الحياة مجرد تراكم أيام؟ هل هي تراكم قهر وذلّ وفقر وفساد وضلال العقل في أفكار سطحية تافهة تهبط بالإنسان إلى مرتبه الحيوان؟ ولماذا تبثّ العديد من الفضائيات برامج كهذه؟ أليس لإغراق المشاهد في السطحية والتفاهة والضلال، كي لا ينتبه فيَعي المشكلة الحقيقية وهي الظلم والاستبداد. سوريا التي تحتل المرتبة الأولى بين دول العالم في النزوح، والمرتبة الأولى كأتعس شعب، يحقّ لها أن تنتفض وتصرخ في وجه كلّ العالم: كفى! كفى! كفى! كفى إمعاناً في إذلال هذا الشعب! كفى لمعاملته بقسوة لا حدود لها ولا قاع! كلُّ من ألتقيهم من السوريين تعيسون ومُروّعون من هول هذه الحياة التي لا تشبه الحياة في شيء. أما آن للضمير العالمي أن ينتفض حقاً، وألا يكون موقفه كموقف بان

كي مون (الأمين العام للأمم المتحدة) القلِق دوماً على سوريا، وكذلك موقف أسياد العالم؟ أما آن للمعارضة المشرذمة المرتبطة، والتي تضمّ فصائل متطرّفة، أن تُنقّي نفسها من الشوائب لتكون معارضة يهمّها حقاً الشعب السوري، والكفّ عن سفك الدماء؟ أما آن للنظام أيضاً أن يجد طريقة من أجل شعبه كي يتحاور مع المعارضة؟ هل الأزمة السورية مُستعصية على الحلّ إلى هذه الدرجة؟ أم أن إرادة الدول كلها أن تغرق سوريا بدماء أبنائها، وأن يغرق قسم كبير من شعبها في ضلال الجهل والتفاهة والأسئلة المخجلة التي يسألونها على الفضائيات؟ ربما العالم كلّه متآمر على سوريا كي يعطيها وسام الأولوية في النزوح، وفي كون شعبها أتعس شعب في العالم.

التمييز العنصري لكهرباء سوريا

ثلاثة أيام كانت كالحلم بالنسبة للسوري الذي تنعّم بعدم انقطاع الكهرباء في بيته طوال ثلاثة أيام عيد الفصح المجيد، ليس كلّ سوري، بل السوري الذي يصنّفه النظام بأنه يسكن في الأحياء أو الحارات التي تضم عدداً من المسيحيين، قد يكونون أكثر من غيرهم فيها، حيث يلعلع صوت فيروز شجيّاً تغنّي تراتيل عيد الفصح من رحلة درب الآلام للمسيح حتى فرح القيامة والحياة الأبدية. وفي الواقع فإن مؤسسة الكهرباء التي تريد أن تراضي وتدلِّل الأقلية المسيحية، بعدم قطع الكهرباء أبداً، قد فاتها أن أحياء وشوارع كثيرة في اللاذقية لم تلمح الكهرباء ولم تتنعّم بها، وهي تضم أغلبية مسيحية أيضاً، فعلى سبيل المثال: مطرانية الروم الأورثوذكس وكنيسة مار نقولا تقعان في شارع العوينة، وآلاف العائلات المسيحية تسكن هناك، ومع ذلك، تركت وزارة الكهرباء سيادة المطران قابعاً في الظلام، هو وجيرانه المسيحيون، ربما لأن العوينة شارع فقير، وربما لأن اسمه (العوينة) يُشبه العواينية. أما المسيحيون الأثرياء، الذين يسكنون قرب مستشفى الأسد (عفواً، حالياً مستشفى الروس)، والذي يُسمى شارع الأمريكان، حيث تتجمّع فئة كبيرة من المسيحيين الموالين حتى نقيّ العظام للنظام،

والذي اختلطت فيه ترانيم فيروز الجنائزية الحزينة بأغانٍ موالية للرئيس من المطربين الموالين. وأنا للأسف كنت واحدة ممن لسعتني الكهرباء بنورها المتواصل لثلاثة أيام، هي أيام العطلة الرسمية بمناسبة عيد المسيحيين، ولم أفرح أبداً، بل شعرتُ بالإهانة لأن إخوة وأصدقاء لي لا تصلهم الكهرباء، في هذه الفترة، ساعةً في اليوم. الأمر لا يحتاج إلى ذكاء على الإطلاق، ولا إلى تحليل يستند على أبسط قواعد المنطق، فالنظام يتعمّد ويشتغل جيّداً كي يبدو حامي الأقليات، وها هي ذي الأقلية المسيحية الساذجة تفرح وتتباهى بأن الدولة غمرتها بالكهرباء أكثر من ثلاثة أيام، بينما باقي الشوارع غارقة في الظلام. السؤال البريء الذي طرحه عليّ طفل لا يتجاوز السادسة من عمره: «خالتو، معناها الدولة بتقدر تجيب الكهربا على طول ودوماً؟!». ووافقتُه، فطلب توضيحاً، فربّتُّ على خدّه وقلت: سوف تفهم! وأنا أؤمن أن غاية النظام واضحة، وهي استمالة الأقليات، والإيحاء لهم بأنها تحترم مناسباتهم الدينية. وفي يوم جنّاز المسيح، حين أحرجتني صديقتي بضرورة الذهاب إلى الكنيسة، لأشارك في طقس واحد على الأقل، لم أفهم عظة الخوري السياسية بامتياز، لدرجة أنها كانت تشبه تماماً نشرة أخبار (الميادين) أو (الإخبارية) السورية! وللحظة اختلط عليَّ الأمر، هل صاحب الغبطة (المطران) يمتدح الرئيس أم يسوع؟ وتركت الكنيسة على شعور خانق بالألم، وتمنّيت لو أتشارك أحبّتي وإخوتي السوريين، من كل الطوائف، نعمة انقطاع الكهرباء. أجل، أقول نعمة، لأن النعمة الحقيقية في عيشنا هي المشاركة؛ لا أريد أن أدلَّل وأتميّز عن أخي السوري لأنني مسيحية. كلّنا متساوون في المواطنة. ولماذا في شهر رمضان الكريم لا تُنعم الدولة على إخواننا المسلمين بفائضٍ من الكهرباء؟! هل لأنهم أكثرية سنّية؟ ألم يجرّنا نظام كهذا إلى التفكير

بتلك الطريقة، وجعل الناس يستعملون دوماً هذا التعبير الشعبي الذي يدلّ على اللامساواة: الناس خيار وفقوس؟! وأمام النفوس المحتقنة والغاضبة والتي هي على شفير الانهيار العصبي (ولغز مبادلة أهالي الفوعة والزبداني ومضايا) أشبه بحلّ لغز وموت المئات من المدنيين الأبرياء، وقبلهم المطالبة بتحقيق نزيه في استعمال السلاح الكيماوي ومن استعمله! على خلفية الدم والموت الجماعي والإجرام ولا مبالاة المجتمع الدولي، أتى عيد الفصح ليزيد من غضب المواطن وسخطه، حين يرى أن الدولة تميِّز بين سكانها وتُغرِق الأحياء والشوارع المسيحية (كما تصنّفها هي) بالكهرباء، بينما بقية أحياء اللاذقية تكاد لا تأتيهم الكهرباء ساعة في اليوم. واضح أن الغاية هي خلق شرخٍ بين المسيحيين وبقية الطوائف، بحيث يبدو المسيحي هو الابن المدلل للنظام. لماذا الإصرار على تكريس الأنانية الفردية بحيث يصبح شعار كل مواطن: أسألك نفسي يا ربّ!؟ وكلّ أهل اللاذقية يعلمون أن الشيخ الفلاني الموالي حتى نقيّ عظامه للنظام لا تنقطع عنده الكهرباء، وحتى المصعد في بنايته يعمل على الكهرباء طوال اليوم، ويستفيد من المصعد جيرانه ويفرحون بتميّزهم عن الآخرين. ما كان ينقصنا في هذا الوضع، القمّة في المأساوية في سوريا، سوى أن نزيد الشرخ بين المواطنين، بدلَ زيادة اللحمة الوطنية التي نسمعها فقط من رجال أبواق السلطة. أما على أرض الواقع، فالأمر معكوس؛ فللكراهية رائحة، أصبحت الطوائف تكره كلٌّ منها غيرها، وكلٌّ منها تعتقد بأنها هي من يجب تكون مدلّلة لدى النظام، المسيحيون لكونهم أقلية ومعظمهم موالون، والسنة الذين هم الأكثرية ويطالبون بمعاملة بالمثل مع المناطق المسيحية، والعلويون أيضاً الذين ضحّوا بشبانهم في سبيل الوطن والنظام. ولا أنسى الأستاذة الجامعية من الطائفة العلوية التي

عاشت 17 عاماً من عمرها مع ألطف وأرقّ جيران من الطائفة السنية الكريمة، وكانوا يباركون لها بنجاحات أولادها، ويتبادلون الزيارات في المناسبات الاجتماعية والدينية. كيف انقلب تفكير الحاصلة على دكتوراه في الهندسة والأستاذة الجامعية، وقررت عن سابق تصميم أن تترك جيرانها السنّة وتسكن في منطقة أغلب المقيمين فيها من الطائفة العلوية؟ وعلّلت تصرّفها هذا بأنها لاحظت بعض الطلاب من إدلب يرشقونها بنظرات حقدٍ، وخافت أن يذبحوها. مع أن هؤلاء الطلاب سكنوا المدينة الجامعية في اللاذقية بعد أن دُمِّرت بيوتهم في إدلب بسبب البراميل المتفجرة. وكما في رواية «بيضة النعامة» للمبدع القبطي (رؤوف مسعد)، التي يبيِّن فيها كيف أن الدولة هي المُحرّك الخفيّ والأساسي للصراع الدموي القبطي السنّي؛ كنت أتمنى أن ترفض الطائفة المسيحية هدية العيد – الأشبه بالخازوق – المقدَّمة للمناطق البرجوازية في اللاذقية: كهرباء لثلاثة أيام. كهرباء لثلاثة أيام متواصلة كانت كافية كي تصلبني من الخزي والألم على شعبي الحبيب الغارق في النور. متى سيدرك هذا الشعب المُروّع والموجوع أن في الاتحاد قوة، وأننا كلنا شركاء في وطن حبيب اسمه سوريا؟

الانتصارات

كلُّ شيء في سوريا انتصار! إذ فجأة يكاد المواطن السوري في الساحل (اللاذقية وطرطوس) يُصاب بسكتة قلبية من الفرح بعدم انقطاع الكهرباء أبداً، بعد أن كان تقنين الكهرباء «3 بـ 3» أي ثلاث ساعات وصل للكهرباء، وثلاث ساعات قطع، وبرمج المواطن السوري في الساحل حياته على هذا الأساس، خاصة تشغيل الأدوات الكهربائية. وفجأة تهبط نعمة الكهرباء المتوفرة 24 ساعة، ويظهر مسؤول سوري رفيع المنصب على شاشة الفضائية السورية ويقول إن الجيش السوري حرَّر حقول النفط في دير الزور من سيطرة داعش وحقق انتصارات مُذهلة، وهذا هو سبب عودة الكهرباء من دون انقطاع إلى المواطن السوري الغالي جداً على الدولة. ولا أعرف لمن أتوجه بسؤالي، ترى هل تحرير آبار النفط في دير الزور يجعل الكهرباء تأتي للتو في الساحل! ألا تحتاج عودة الكهرباء إلى فترة زمنية ولو لعدة أيام؟

وما إن مرّت ثلاثة أسابيع ونحن في الساحل ننعم، إلى حدّ الذهول، بعدم انقطاع الكهرباء أبداً، حتى عادت للانقطاع، ولا أعرف كيف سيفسّر ذلك المسؤول في الدولة عودة انقطاع الكهرباء؟ ترى

هل عادت داعش وسيطرت على بعض حقول النفط في دير الزور؟ أم حدث عطل ما؟

انتصار دير الزور توافق مع احتفالات ضخمة في حمص بالانتصارات في حمص، وجرى الاحتفال بانتصار حمص على أعلى المستويات، بمشاركة محافظ حمص وكلّ المسؤولين فيها، ونُظمت احتفالات طلابية ضخمة جابت شوارع حمص. كذلك الاحتفال بانتصار حلب التي دُمّر أكثر من 80 في المئة منها، والمذيع الأبله، في ذروة القصف على حلب، يقول: ابتسم، أنت في حلب! في الوقت الذي تنهمر فيه القذائف الصاروخية والبراميل المتفجرة على المشافي وعلى الأحياء السكنية. يُذكّرني هذا المذيع الأبله الذي يقول: ابتسم أنت في حلب، بينما شاشة الفضائية السورية تعرض صوراً – على الأغلب تعود لما قبل الثورة السورية – لآباء يمرجحون أولادهم في المراجيح في حديقة عامة بحلب! يذكّرني بعبارة: ابتسم أنت في دير عطية! ولا أعرف لمَ عليَّ أن أبتسم، لأنني في طريقي إلى دمشق أمرّ في دير عطية التي لا أعرف بم تتميّز، ولماذا عليَّ أن أبتسم لأنني أمرّ في دير عطية التي كلّ ما أعرفه عنها أن أهمّ موظّفٍ مسؤول في القصر الرئاسي واسمه، أبو سليم، وهو الذي كان ينظّم المواعيد لمقابلة الرئيس، أصله من دير عطية. ربما لهذا السبب تطلب منا الدولة أن نبتسم حين نمرّ بدير عطية!

إذاً، كل شيء في سوريا انتصار، وللأسف، فالمواطن المُروّع من ذلّ العيش، يعامَل من قبل مؤسسات الدولة وفق قانون بافلوف، فهو يتحول إلى كائن تتحكم الدولة بردود أفعاله ومنعكساته، إذ يوهم نفسه بأنه يُصدِّق مسؤولي الدولة المرتشين والمنافقين بأن يبرر لهم ما يقولونه؛ فمثلاً يبرر للصرّافات تعطّلها فجأة بأن شبكة الإنترنت من

دمشق تعطلت! أو أن الموظف في المصرف سوف يحتاج إلى ساعة كي يضع المال في الصراف الآلي، ويبرر انتظاره في الشارع تحت الشمس الحارقة أو البرد القارس بأن الموظف يضع مبلغاً كبيراً في الصراف ويحتاج ذلك إلى زمن طويل، بينما وضع عدة ملايين في جيوب المسؤولين المُرتشين لا يحتاج سوى دقيقةٍ واحدة. المواطن حين يجبر نفسه على أن يبرّر ذلّ عيشه، وبأنه يُصدق المسؤولين اللصوص، فإنه في الواقع يحاول أن يخفّف هول مصيبة العيش وقساوتها في سوريا على جهازه العصبي، كي لا ينفجر أو يجنّ صاحبه، لأن الجنون هو رد الفعل الطبيعي لتحمّل نفاق الدولة وذلّ العيش.

ومن يتابع (الفضائية السورية) أو (الإخبارية) السورية يُصعق من كمية التفاؤل فيهما! ويشعر بأن سوريا أحسن بلد في العالم. وفي الوقت الذي يموت فيه المئات على طول مساحة الأرض السورية كل يوم، فإن الإخبارية السورية تكون منشغلة بالحوار مع عدّة محللين سياسيين حول مأساة اليمن والأطفال اليمنيين الذين يموتون بالمئات والآلاف من الكوليرا وغيرها من الأمراض! سبحان الله! أليست سوريا وأطفال سوريا وشبّانها أولى بإعداد برامج تناقش بصدق وشفافية وجرأة أوضاعهم المأساوية، من موت ونزوح، من مناقشة مأساة اليمن أو غيرها من الدول؟! وأذكر جيداً أنه بعد كل مجزرة في سوريا، مثل مجزرة أطفال الحولة المُروّعة وغيرها من المجازر، فإن التلفزيون السوري كان يبثّ، لساعاتٍ، الموسيقا الكلاسيكية! هذا هو إعلام النظام الذي يتهم غيره من الإعلام بفبركة أفلام عن سوريا وسجون سوريا ويتهمها بأنها أفلام مُفبركة وكاذبة، بينما الإعلام السوري لم يتوقف يوماً واحداً عن إعداد برامج وثائقية لأمهات ثكالى فُجعن بأولادهن، وآباء مات أولادهم موتاً عبثياً في الجيش السوري،

والأمهات يزغردن فرحاً لموت أولادهن الشبان في سبيل الوطن ويتمنين أن يلتحق كل أولادهم بالجيش السوري، وأن يحظوا بشرف الشهادة في سبيل الوطن! من يصدق هذه البرامج؟! هل يُعقل أن تفرح أم لموت ابنها! وأن تزغرد فرحاً! أو أن ينتشي أب بموت ابنه الشاب في الجيش السوري فداء للوطن، ويتعهد بأن يُرسل ابناً آخر ليستشهد. ويظهر أحد المسؤولين المتنفذين في الدولة ليعلق على هذه البرامج المُفبركة، وهو الذي هرب أولاده إلى الخارج، يظهر المسؤول على الشاشة ليحيي هؤلاء الأمهات الثكالى اللاتي ربّين أولادهن تربية صالحة وأعددنهم للموت ليحققوا الانتصارات في سوريا.

انتصار تلو انتصار في الإعلام السوري، وعلينا أن نبتسم في حلب وحمص ودير عطية وربما في كل شبر مُدمّر من سوريا؛ على المواطن السوري أن يبتسم ببلاهة لأن الانتصارات تحفّ به. بينما على الأرض لا نرى إلا مواطناً مسحوقاً فقيراً ومذلولاً. لكنه مُجبَر على أن يكون منتصراً.

العصفورية

لا أقصد أية مُبالغة أو سخرية من عبارة «عصفورية»، فهي تلخّص ما آلت إليه سوريا، التي صار العيش فيها أشبه ببروفة للعيش في جهنم؛ أي أن السوريين لن يُفاجؤوا أبداً فيما لو كان مصيرهم في الحياة الأخرى جهنّم، لأنهم سيجدون أنفسهم يتابعون العيش ذاته الذي يتحمّلونه منذ ثلاث سنوات في سوريا. وأظن أن على (غوغل) أن يخصِّص موقعاً خاصاً لكتابات السوريين عن أحوالهم المعيشية، فسكّان حلب، مثلاً، ضربوا الرقم القياسي في التحدث والشكوى من انقطاع الكهرباء لأيام تزيد أحياناً عن عشرة أيام، وكذلك الغلاء الفاحش للغاز – إن توفّر – إذ يصل سعر تعبئة جرّة الغاز إلى 15 ألف ليرة سورية؛ أي ما يعادل راتب موظف. سكّان الساحل يعانون من انقطاع الكهرباء لفترات طويلة ، ولكنهم يشعرون أنهم صاروا أشبه بالساعة الرملية، يتشقلبون كل ثلاث ساعات بين نور وظلمة. وكثيرون منهم تأقلموا مع هذه الحالة، وخاصة طلاب المدرسة؛ إذ صاروا «ينامون مع الدجاج»، في الساعة الثامنة مساء حين تنقطع الكهرباء لساعات، ويستيقظون عند الرابعة فجراً ليقبضوا على أول شعاع فجر وليدرسوا، أو تقوم الأمهات بأعبائهم التي تتطلب أعظم رفاهية في حياة السوريين: الكهرباء.

المشكلة الحقيقية، كما أعتقد، ليست الكهرباء بل أن يلهث شعب بأكمله وراء تفصيل يُلهيه عن أمور جوهرية وحقيقية، وتجعله فاعلاً في حرف مسار الأحداث الدامية الإجرامية في وطنه، وإلا كيف نفسّر أن هذا الانقطاع المُمنهج يتوقف أحياناً، وفي مناسبات عديدة؛ مثل يوم عيد الميلاد، أو في حال وجود خطاب مهمّ لأحد الزعماء السياسيين الذين يصرّ أصحاب القرار أن يسمعه كلّ الناس، فيغمرونهم بالكهرباء! هل يتساءل أحد كيف أمكن إصلاح عطل الكهرباء فجأة! أو لماذا خفّ التقنين المُذِلّ؟ ولماذا تعود الأمور إلى سابق عهدها ما إن تنتهي المُناسبة؟! ليست الكهرباء سوى تفصيل تافه تجاه ما يعانيه السوريون من ضغوط نفسية رهيبة، أعجب كيف يمكن لبشريٍّ أن يتحمّلها! وأذكر بعض الحالات التي يتشابه بها الآلاف من السوريين؛ فأحد أصدقائي، وهو طبيب، اضطرّ إلى النزوح من حلب إلى بيروت، وهو يعيش في بيروت منذ عامين من دون عمل، ويصرف من المال الذي ادّخره من عمله الطبي في حلب، واضطر إلى بيع سيارته بسعر بخس، قال لي في آخر مرة تحدّثنا فيها إن بيته في حلب يسكنه شبّيح، وإن لديه منزلاً صغيراً في منطقة قرب حلب تُعتبر مصيفاً يسكنه أحد عناصر الجيش الحر. يا سلام! يا للتوازن الدقيق والعدالة المثالية! هذه عدالة سوريا: منزل يسكنه شبّيح، ومنزل يسكنه عنصر من الجيش الحر. أما المواطن صاحب الحق فمنبوذ ومطرود من وطنه وبيته، وقد تحوّل إلى مواطن افتراضي في وطن لا يبالي به. وهو كملايين من السوريين يتابع الدمار اليومي والقتل اليومي لوطنه ولشعبه، ولا يمرّ يوم، وربما لا تمر ساعة، إلا وكلّ سوري يقول عبارة: الله يرحمه. فالسوريون يُقتَلون يومياً وبدم بارد، سواء كانوا من الجيش السوري، أو الجيش الحرّ، أو العديد من التسميات التي لم تعد ذاكرتي تتسع لها. وأصبحت عبارة «الله

يرحمه» هي القاسم المشترك الأعظم لدى كل السوريين مهما اختلفت انتماءاتهم، وطوائفهم، وأصبح الموت الطبيعي رفاهية، بل يثير العجب والدهشة! السوريون الذين يُعتبرون محظوظين، إذا تمكّنوا من اللجوء إلى دولة أوربية، وخاصة السويد والنرويج وهولندا، يخضعون لفترة تحقيق طويلة في مخيّمات، يُستجوَبون بدقّة، لأيام ولساعات، وبعد ذلك تتحنّن الدولة الأجنبية عليهم وتعطيهم معونة، صدقة، هم الذين كانوا أطباء ومهندسين وأصحاب مهن في سوريا، هم الذين كانوا يشعرون بالفخر وعزّة النفس لأنهم يحصلون على المال بعرق جبينهم وبجهدهم، الآن وجدوا أنفسهم في عالم غريب يعاملهم كلاجئين ويتصدّق عليهم ببعض العطاءات، ويؤويهم غير عابئ بالدموع التي يبست على أهدابهم من هول القهر وألم الانسلاخ عن وطنهم، وهم لا يجرؤون على أيّ سؤال أو استفسار؛ فإحدى صديقاتي تمكّنت بعد صبر عامين من الحصول على فيزا زيارة إلى هولندا مع ابنها المراهق، وهناك قدمت طلباً للجوء وخضعت لفترة تحقيق طويلة قبل أن تتمكن من استئجار منزل بالمساعدة المالية التي تقدمها الحكومة الهولندية، وهي، منذ أشهر، تنتظر انتهاء معاملة «لمّ الشمل» كي تتمكن من طلب زوجها، ليلتئم شمل عائلة تشظّت من الألم. صديقتي- وهي طبيبة- التي كنت ألتقيها مراراً في حلب حيث تسكن، وأجدها في انتظاري في محطة القطار، والتي زارتني مراراً في اللاذقية، صديقتي الغالية تحولت إلى صورة على شاشة. كم علينا أن نشكر التكنولوجيا التي اخترعت «سكايب» و«فايبر» وأساليب التواصل بين ناس نَفاهم الألمُ والخرابُ، كلٌّ في مكان! أتحدّث إليها عبر شاشة، أتعجّب كيف أن ملامحها هي ذاتها، ولكن صار لها وجه آخر! كيف يمكن للملامح أن تبقى نفسها، ولكنّ الشخص يصبح شخصاً آخر. وعلى الرغم من

ابتسامتها العذبة التي سرعان ما تذوي لا إرادياً، والأخبار الجديدة التي تخبرني بها عن حياتها في هولندا، وعن ضرورة تعلّم اللغة الهولندية وصعوبة تلك اللغة، وصعوبة التعلم في منتصف العمر، ولكنها مضطرّة إلى أن تقدّم فحص اللغة وأن تتقنها كي تحصل على الجنسية الهولندية. نتحدّث عبر شاشة، ولكننا نشعر أن بيننا حلب الشهباء واللاذقية المتباهية ببحرها وريفها الجميل، نتحدّث وصوت القطار يشقّ الطريق الزراعية بين حلب واللاذقية في أذنينا، نتكلم والصور نفسها تنهمر من ذاكرتنا الجريحة وتغمر سطح الشاشة، صورنا معاً في الفندق السياحي الذي تحوّل إلى حطام، وصورنا في سينما حلب نناقش مع عدد من النقّاد والمثقفين والجمهور الغفير فيلم «باب المقام» لمحمد ملص، ولا ينتهي النقاش إلا بعد منتصف الليل، ونتابع السهرة في أحد مطاعم حلب القديمة، الذي كان قصراً، واستحال إلى حطام يطمر مئات السوريين القتلى تحته، وقد تماهى البشر مع الحجر، والتصق اللحم البضّ بالصخر القاسي، فرقَّ الصخر وصار له قلب، أما قلوب السياسيين فبقيت من حجر ولا مجال أن تعرف رحمة أو إنسانية. ماذا تعني بداية عام جديد في سوريا؟ لا شيء على الإطلاق، فالجحيم مستمرّ ولم يعد أحد يثق بأن ثمة انفراجاً أو حلاً. لا يوجد منزل في سوريا إلا تأذّى، لا توجد أسرة إلا فُجعت بعزيز أو أكثر، ولم يعد من نشاط اجتماعي للسوريين سوى التعازي، ولم يعودوا يلتقون سوى في المقابر ليبكوا أحبّاءهم الذين قُتلوا. أما من مات في المجازر والمقابر الجماعية، فهؤلاء قد يكون لهم أثر في أرشيف بعض القنوات الفضائية التي ربحت الملايين من الأفلام الوثائقية والصور عن مجازر السوريين. كل تلك الآلام والإحباطات واليأس والصبر، كل ذلك الجحيم، على السوري المتبقي على قيد الحياة أن يتحمله، وفوق

ذلك عليه أن يوهم نفسه بأن ما يعيشه هو حياة، وأن قراراً عجيباً وأشبه بالفكاهة بتدريس اللغة الروسية في المدارس السورية هو قرار يعني أن ثمة دولة تقرِّر قرارات حكيمة، وأنها مهتمة بتعليم الأطفال فيها لغة عريقة، لأن روسيا هي الداعم الأكبر لسوريا. يا سبحان الله! الأحرف ذاتها ولكن الاختلاف في الترتيب فقط! (روسيا، سوريا)، ألا يصلحان لأن يكونا توأماً! قرار إدراج اللغة الروسية في المدارس السورية يتجاهل وضع أكثر من ثلاثة ملايين طفل سوري خسروا المدرسة وحقيبة المدرسة وأحلام الطفولة، ويعيش معظمهم في المخيمات البائسة جياعاً ومقهورين يعانون من أقسى أنواع العصاب والأمراض النفسية والسلوكية والاستغلال أيضاً بكل أشكاله. ربما علينا، كي لا ننفجر من الغيظ، أن نتخيّل أطفال المخيمات السوريين الذين أنساهم هول الرعب لغتهم العربية، أن يزقزقوا كالعصافير وهم يتعلمون اللغة الروسية من ثلّة من المدرّسين الروس الذين قد يتدفقون إلى المخيمات التي تؤوي السوريين. يا سلام! لوحة سريالية يتمنى سلفادور دالي لو طال به العمر ليرسمها بطريقته الخاصة، وأنا واثقة من أنه سيضع عنواناً للوحته: «العصفورية»!

تعلّمت في الطب أن الألم نوعان؛ حادّ، ومزمن، والألم الحادّ مهما كان قاسياً إلا أنه قصير ويمكن تسكينه والقضاء عليه، أما الألم المزمن فهو يوهن الجسد وينخره ببطء ولؤم وإصرار على أن يهدم كل حيوية وشهية للحياة، كما هو حال الألم السوري. المواطن السوري انفطر قلبه وتشظّت روحه من هول القهر والظلم والتحمل، ولم يعد يثق بأيّ طرف. ينظر بلامبالاة إلى آلاف المقالات التي تُكتَب عن داعش ولا يقرأ إلا العناوين التي تحرّض في نفسه الغثيان، وبالروح اليائسة نفسها يقرأ عناوين المقالات التي تُكتب عن النظام السوري وعن الائتلاف

وعن الجيش الحر وعن الفصائل الجهادية المقاتلة، وعن المؤتمرات الدولية والإقليمية، وعن انشقاقات بهاليل يدَّعون أنهم يمثّلون الشعب السوري، وهم، في الحقيقة، يتاجرون بدمه. القهر حين يصير مزمناً يوهن شهية الحياة، والقتل اليومي للسوريين، على مدى ثلاث سنوات، يجعل السوريين المتبقين على قيد الحياة يشعرون بأنهم يقفون في طابور طويل في انتظار دورهم في القتل؛ يشعرون بأن سوريا تحولت إلى كفن كبير، يكاد لا يتسع لأبنائها الذين يُقدَّمون قرابين للشياطين الذين استوطنوا سوريا، أو يتقاتلون فيما بينهم لتقاسم الغنائم.

من قال إن الرصاص وحده يقتل! السوري لا يموت من الرصاص فقط ولا من الصواريخ والبراميل المتفجرة ولا من الكيماوي والسارين وغيرها من أدوات القتل. أصبح الكثير من السوريين يموتون من القهر. من اليأس الذي نخر قلوبهم، من ذلك الألم المزمن الذي عمره أكثر من ثلاثة أعوام. قتل الروح أكثر إجراماً من قتل الجسد لأن أداة الجريمة مخفيّة. أداة الجريمة في أيدي أصحاب الأيدي الناعمة التي تتصافح بلباقة في قاعات المؤتمرات في الفنادق الفخمة، والتي تبتسم لعدسات آلاف المصورين والصحافيين؛ ابتسامة النفاق، ابتسامة من اتفق على ذبح الشعب السوري مجنِّداً حلفاء وأزلاماً تحت مسمّيات مُنمّقة. هؤلاء يريدون سوريا مدمرة ويريدونها جحيماً وعصفورية. لكن الشعب السوري لن يفقد صوابه ولا عقله، لأنه يؤمن بأنه يستحق الحياة الكريمة والحرية، ولأن الحقّ سيحرّره من بطش الظلم والباطل.

الأمل الغريق

أصبح من الواضح أن عبارة «حقوق الإنسان» مجرّد لافتة يتشدّق بها المُدّعون الكثُر بالدفاع عن حقوق الإنسان، أو يمكن تشبيهها بـ(شيكٍ بلا رصيد)؛ إذ إن شبكات حقوق الإنسان على اختلاف جنسياتها لا تفعل شيئاً سوى الإحصاء والتصنيف الدقيق والعالي لنوع الضحايا، ولا يمكننا قراءة التقرير الذي أصدرته «الشبكة السورية لحقوق الإنسان»، في يوم الطفل العالمي، من دون التوقف مذهولين من دقّة الإحصائيات ومن هول الظلم والانتهاك الذي تعرّض له أطفال سوريا. وقد أبدعت تلك الشبكة في بلاغتها، حين أطلقت اسم (الأمل الغريق) على أطفال سوريا. تعبير رائع يعجز عنه المتنبي ربما. وقد قدمت لنا الشبكة السورية لحقوق الإنسان في يوم الطفل العالمي إحصائية دقيقة عن الأطراف المتصارعة التي قتلت عشرين ألف طفل من أطفال سوريا! عشرون ألف طفل سوري لا يبالي بهم أحد في العالم، وخاصة المنظمات الحقوقية لحقوق الطفل، إلا كونهم مصدراً للإحصاء وكتابة عمود في جريدة. وبيّنت عدد الأطفال الذين قتلهم النظام، والذين قتلتهم جبهة النصرة والقناصة ...الخ، كما لو أن معرفتنا بمن قتل الأطفال يُغيّر من الحقيقة المُخزية وهي أن هؤلاء

الأطفال قُتلوا، وبيّنت الإحصائيات أيضاً أن عشرين ألف طفل سوري مات آباؤهم وتحولوا إلى يتامى، وأن عدد الأطفال القتلى يشكل 7 في المئة من عدد القتلى في سوريا. ولم تُغفِل الشبكة التي تدّعي حماية حقوق الإنسان التنبيه إلى تجنيد آلاف الأطفال في الصراع المسلح، وإلى حرمان آلاف الأطفال السوريين من الجنسية، هؤلاء الذين ولدوا في بلد اللجوء أو المنفى.

مجرد عمود في جريدة ومقال صغير عنوانه (الأمل الغريق) هو ما قدّمته منظمات حقوق الإنسان، وخاصة الشبكة السورية لحقوق الإنسان، في يوم الطفل العالمي، حتى أننا لا نقرأ شجباً ولا استنكاراً ولا تفجّعاً على البراعم التي لم تتفتح للحياة بعد، ولم نقرأ أيَّ اعتذار لأطفال سوريا! مجرد اعتذار! ولا نقرأ اعترافاً بالتقصير تجاههم وعدم حمايتهم، فلغة علم الإحصاء الجافّة هي السائدة. ترى، ما الدور الذي لعبته وتلعبه المنظمات الحقوقية، خاصة المنظمات الحقوقية المعنية بحماية الطفل؟ كيف ستزهر شجرة قُطفت براعمها، بل سُحقت؟ أيّ مستقبل ينتظر سوريا وقد قُتل حتى اللحظة عشرون ألف طفل من أطفالها، ولم يحرك الضمير العالمي الغارق في السُّبات ساكناً؟ يبدو أن الإجرام يحتاج إلى استعمال عبارات إنسانية تُزوّر وتُموّه إجرامه، ويبدو أن عبارات مثل جمعيات حقوق الإنسان وحقوق الطفل، ومجلس الأمن الدولي، والدول العظمى في الإجرام التي تتدخل في سياسة دول العالم الثالث لخلق أطراف متنازعة، بهدف السيطرة على ثرواتها وإضعافها وتقسيمها، وزرع بذور الإرهاب فيها، يبدو أن عبارات كالشفافية، ومحاربة الإرهاب، وخطة أوباما العبقرية بأنه يحتاج إلى أكثر من ثلاث سنوات ليقضي على داعش! أمريكا أقوى دولة في العالم، التي تحرّك سياسته كما يحرّك لاعبُ الشطرنج

الأحجار، تحتاج إلى أكثر من ثلاث سنوات للقضاء على داعش! من يصدّقها؟ وإسرائيل تشتري البترول من داعش، إننا فعلاً نعيش في عالم منهار أخلاقياً تماماً، وقد أشار المبدع أمين معلوف في كتابه «اختلال العالم» إلى أن مشكلتنا في هذا العصر أخلاقية، وأن حلّ مشاكل الكرة الأرضية التي تغلي بالعنف والإجرام لن يكون اقتصادياً، بل أخلاقياً. ويبدو أن نظاماً أو حاكماً مستبداً ومجرماً يحتاج إلى تلميع صورته، كأن يعطي جوائز أدبية باهظة لكُتّاب هم على الأغلب أبواق له، ومعروف أن إسرائيل تعطي أعلى مبالغ للجوائز الأدبية، ولا ننسى الجوائز والمبالغ الطائلة التي كان يعطيها القذافي لمطربة من الدرجة العاشرة أحيت حفلة، أو لكاتب مرموق كي يخدع الناس بأنه يقدّر الثقافة والمثقفين، وبأنه ليس ديكتاتوراً حكم ليبيا 42 سنة!

علاقة العالم الغني المُستبد وسياسته بالعالم الثالث الفقير والمسلوبة ثرواته بطرائق شتى، منها الاختباء وراء عبارات طنانة كالوصاية ومجلس الأمن الدولي، وجمعيات حقوق الإنسان والطفل، تلك العلاقة تشبه علاقة أليعازر الفقير، والقروح تغطي جسده، بجاره الغني الذي لم يساعده. ومن يراجع التاريخ يكتشف ظلم المُستعمِر للشعوب التي استعمرها، ونحن نعيش زمن استعمار جديد هو الرأسمالية العالمية والشركات متعددة الجنسيات، استعمار يستعمل طرائق غير تقليدية في سرقة شعوب العالم الثالث. من يتأمل خيراً من أمريكا وأوربا يكُن واهماً، فهذه الدول العظمى لا يهمّها إلا مصالحها، ولا تبالي بسكان العالم الثالث، ومن حين إلى آخر تتظاهر بأنها تقدم لهم مساعدات خُلّبية.

قامت الدنيا ولم تقعد بعد تفجيرات باريس. وبالتأكيد، فإن من مات هو ضحية الإرهاب، والكلّ يتعاطف معهم إنسانياً، وكل رؤساء

العالم – وبضمنهم زعماء العالم العربي – حزنوا وقدّموا التعازي لهولاند ولفرنسا، بينما لم يترحّم أيٌّ منهم على روح طفل سوري، ولم يشجبوا تجنيد الأطفال السوريين واستغلالهم بشتى الطرائق، من عمالة الأطفال إلى الاستغلال الجنسي، إلى عدم حصول الطفل على جنسية حين يولد في المنفى، لأن هؤلاء الحكام هم خدم لأسيادهم الذين يحكمون الدول العظمى.

لكن السحر سينقلب على الساحر بالتأكيد، وكما يُقال: كما تزرع تحصد. والأمل الغريق، أطفال سوريا، سيكبرون بعد سنوات ويتحولون إلى شبان وسينتقمون. ووحدهم سوف يعرفون تماماً ممّن سينتقمون. الأمل الغريق لن يبقى غريقاً لأن الدم الذي يجري في عروق السوري هو دم مشبع بالكرامة والنبل والوطنية. وإذا تمكن الكبار من النسيان بسبب العمر والجبن والخوف، فإن أطفال سوريا لن ينسوا من آذاهم ويتّمهم وشرّدهم واستغلّهم، لأن ذاكرة الطفل كالوشم لا يمكن أن يزول.

الذاكرة كشهادة عصر

تحضرني ذكريات بعيدة كنت أعتقد أنها ماتت، لكنني أكتشف أنها محفورة كالوشم في ذاكرتي، والأهم أنني حين أستعيدها يتفتّق منها رعب هائل لم أكن أعيه آنئذ، هنا في باريس حيث أمارس نعمة التأمل، خاصة بين (الهُنا): باريس، و(الهُناك): سوريا الحبيبة، تستيقظ حوادث من ذاكرتي بالغة الأهمية ربما اعتقدتُ أنني دفنتها في النسيان، وسأذكر إحدى تلك الحوادث. ففي اليوم ذاته الذي التحقت فيه بقسم الدراسات العليا (اختصاص العينية) في مستشفى المواساة، وكان ذلك سنة 1985 حسبما أذكر، في اليوم ذاته كان يسود هرجٌ ومرج، وعشرات الخدم والعاملين والموظفين يحضّرون القاعة التي ستُناقَش فيها رسالة طبيبة العيون؛ الزوجة رقم أربعة أو خمسة لرفعت الأسد. وكان رفعت الأسد وقتئذٍ قائد ما يُسمى «سرايا الدفاع»، الذين يلبسون لباساً مُبرقعاً، ودعاني رفاقي لحضور المناقشة، وكنت حزينة الفؤاد إذ غادرت اللاذقية وأهلي إلى مجتمع جديد تماماً. ولكنني دخلت القاعة التي أضافوا فوق إنارتها أضواء جديدة فبدت تشعّ كالشمس، وكانت المنصة تضم أربعة كراسيّ للأساتذة الذين سيناقشون السيدة زوجة رفعت الأسد في موضوع تخرّجها كطبيبة متخصصة في أمراض العين

وجراحتها. غصّت القاعة بالطلاب، وجلست الزوجة الدكتورة كملكة متوّجة للتو بين الجمهور، والغريب أن رفعت الأسد أحضر معه ولديه من زوجته تلك ليحضرا مناقشة رسالة أمهما، والأهم أنه أحضر كلبين عملاقين هما كلبا الحراسة اللذان لم يكونا يُفارقان السيدة الدكتورة الزوجة رقم أربعة لرفعت الأسد، وفي زاوية القاعة ثمّة طاولة تغصّ بأفخر الحلويات. ولفتني أن أطفال رفعت الأسد يلبسون لباساً مُبرقعاً هو لباس سرايا الدفاع، وهوى قلبي ذعراً من الكلاب العملاقة، وتساءلت، بيني وبين نفسي: ما الغاية من إحضار كلاب لحضور مناقشة أطروحة التخرج؟! وبالمناسبة، فإن الزوجة لم تكن تداوم أبداً في قسم الشعبة العينية للاختصاص، ومدّته ثلاث سنوات، فقد كانت تحضر كلّ شهرين أو ثلاثة مع كلبيها العملاقين، وكان الكلبان يدخلان حتى مدخل غرف العمليات. لا أفهم علاقتها العضوية الحميمة بالكلاب الأشبه بذئاب. ولم يجرؤ طبعاً أحدٌ من الأساتذة على توجيه أية ملاحظة لها. وحين طبعت أطروحتها للتخرج، بعد أن كتبها لها أحد الطلاب المتفوقين، طبعتها بغلاف مخمليّ مكتوب عليه العنوان والاسم بماء الذهب. جلستُ وسط حشد الطلاب نراقب قمّة الذل ومهزلة المهازل، وهي الطريقة التي نوقِشت فيها أطروحة الزوجة رقم كذا لرفعت الأسد في اختصاص العينية. الكلّ يبالغ في المديح ويُعظّم كل كلمة كتبتها الحسناء، ويعلو التصفيق والكاميرات تصوّر، ثم غشيت عيوننا بنور ساطع أقوى من نور الكاميرات والشمس، وإذا بالسيد رفعت الأسد يتقدم ليهدي زوجته الحاصلة لتوها على لقب (اختصاصية طب العيون) حليةً من الألماس الفاخر بمساحة راحة يد، وكان الإشعاع الذي يشع من الحلية الألماسية يُبهر العيون ويبدو كشمس سخية في القاعة. وضجّت القاعة بالتصفيق والمباركات،

وتقدّمت الممرضات ليضيّفن الحضور الحلويات الفاخرة. أما نظري فكان يتركز على الطفلين ثمرة زواج الحسناء الزوجة رقم أربعة أو خمسة من السيد المُطلق خارج أية محاسبة، وعلى الكلبين العملاقين. وحتى اللحظة، وبعد مرور عقود على تلك الحادثة، ما زلت أتساءل: ما الغاية الحقيقية من إحضار كلاب عملاقة لحضور حفلة تخرج؟ ما غاية السيدة زوجة رفعت الأسد، الدكتورة التي نادراً ما داومت في المستشفى، من أن تُحضر كل مرة كلبين عملاقين كافيين بحجمهما العملاق لإثارة الذعر في النفوس؟ وكلما أصابني انبهار من شمس الصيف تصفعني ذاكرتي بـ(البروش) العملاق (رمز الصاعقة) من الألماس الصافي الذي قدّمه رفعت الأسد لزوجته حاملة لقب حكيم عيون، وهي لم تداوم يوماً. فكّرت في أنه كان يجب أن تكون هنالك ضيافة خاصة لسيادة الكلبين المُقربين من السيدة الجميلة، والتي سرعان ما تزوّج بعدها من شابة أخرى. ولكنني أظن أنها كانت تجد عزاءها في قطعة الشمس الألماسية، رمز الصاعقة، التي أعمت عيون الحضور ببريقها الأخاذ.

عجيب أمر الذاكرة! إذ تراني أستعيد تلك الحادثة بعد أكثر من ربع قرن وأنا جالسة في مقهى باريسي، وصورة الكلبين العملاقين لا تفارق ذهني، وأفكر في أن السيد العجوز رفعت الأسد يعتبر نفسه ممثلاً عن الشعب السوري. مسكين يا شعب سوريا الحبيبة، كم أنت أعزل! تلك الحادثة التي لا يُمكن أن تُنسى كادت تجعلني أغيّر اختصاصي في طب العيون مرتعبة من الكلبين العملاقين (كلاب الحراسة الأكثر شراسة)، وجعلتني أشعر بالقرف والنفور، وبأنني يستحيل أن أنتمي إلى هذه الأجواء وأنا أرى الأساتذة يذوبون رقّةً ومديحاً لزوجة رفعت الأسد الدكتورة. كان هذا يومي الأول في الاختصاص بطب العيون في

مستشفى المواساة في دمشق، والحمد لله لم نعد نرى السيدة وكلبيها و(البروش) الألماسي رمز الصاعقة. عادت الحياة عادية، إنسانية وبشرية، وصوت هامس في قلب كلٍّ منا: إلى متى نتحمّل كلّ هذا الذلّ؟!

غرفة (لا)

يبدو أن الإنسان يملك حاجة عميقة إلى البوح بالحقيقة. وعلى حد تعبير الأشقاء اللبنانيين (بَدُّن يْبُقّوا البَحصة). ها أنا ذا أجدني، بعد أكثر من ثلاثين سنة، أريد أن أبقّ البحصة، لغاية وحيدة، وهي أنني مؤمنة بأن قول الحقّ يحرِّرنا، وأن المسؤولية الأخلاقية للكاتب الحقيقي هي قول الحقيقة مهما كلّف ثمنها. ويبدو أن هنالك هوىً كامناً في نفس الإنسان، وهو الحاجة الماسّة إلى البوح بالحقيقة، ومهما طال الزمن ومرّت السنوات، فإن هوى قول الحقيقة يصبح ضاغطاً، إلى درجة يستحيل، معها، على الإنسان، أن يحفظ السِّرَّ الثقيل.

كنت في السنة الثالثة من كلية الطب البشري في جامعة تشرين في اللاذقية لا أتجاوز العشرين من عمري، حين طلب منا عميد كلية الطب البشري، عن طريق فريق من طلاب اتحاد الطلبة (وهم في واقع الأمر مخبرون، ومهمّتهم كتابة تقارير أمنية بزملائهم)، أن نتجمّع في ساحة كبيرة تضمّ غرفتين متقابلتين، الغرفة الأولى مُعَّلق على بابها لافتة مكتوب عليها «غرفة نعم». والغرفة الثانية مُعلّق على بابها لافتة مكتوب عليها «غرفة لا». وكانت المناسبة إعادة انتخاب رئيس سوريا، القائد المُفدّى إلى الأبد حافظ الأسد. ويومئذٍ، تساءلت بسذاجة وفرائصي

تتقصّف من الذعر: ما الغاية من (غرفة لا) ما دامت مقفلة الباب ولا أحد يقترب منها، ولا أحد يجرؤ أن ينظر إليها. ولكن فضولاً عنيداً جعلني أطيل النظر إلى (غرفة لا) الموصدة، وأتأمل الحرف الممنوع في سوريا وهو حرف (لا)، فسوريا كلها: نعم. وربما النظام يعتبر أن إضافة حرف واحد إلى كلمة «نعم»، وهو (ة) يجعل النعم في سوريا: نعمة. لكن عقلي المشاكس كان يقرأ كلمة نعم على الشكل التالي: (غنم)! كنت مولعة بشقلبة أحرف الكلمات، فالحب أقلب حروفه ليصبح بح... الخ. ووجدت الطلاب الغنم يتقدمون زرافات زرافات إلى غرفة نعم، وينتخبون إلى الأبد القائد المُفدّى حافظ الأسد. والمضحك المبكي في المشهد أن الانتخاب يجري وراء ستارة مُغلقة وبسرّيّة تامة!! كما لو أن هنالك عدّة مرشّحين، أو كما لو أن احتمال كتابة كلمة (لا) وارد. وكيف يكون وارداً وغرفة (لا) مغلقة بالمفتاح؟! وطبعاً، انقدتُ وراء القطيع وكتبت كلمة نعم وأنا أشعر أنني نملة ولا قيمة لي؛ لأن الإنسان مسلوب الحرية لا يشعر بأية قيمة له. ومرت سنوات وبقيت تلك الحادثة تنخر في روحي الشابة التي نجحت في شيءٍ واحد فقط، وهو المحافظة على طزاجة الحقيقة والحفاظ على عفوية، استماتت مدرّباتُ الفتوّة والأجهزة الأمنية والتربية الدينية والأسرية في خنقها وتشويهها، لكن، عبثاً. وها أنا ذا وقد بلغت منتصف العمر، واطمأننتُ أن كل أسرتي تعيش خارج سوريا، وأنني أستطيع أن أعيش بكل يسر وبساطة في باريس، لكنني اخترت أن أعود وحيدة إلى وطني الجريح المُنتهك والمُهان والمُغتصب سوريا، وأن أجلس لساعات في مقاهي الرصيف أتأمل الوجوه الكالحة اليائسة للسوريين، وأن أحصي عشرات المتسولين الأطفال الذين يمرّون بالمقاهي كل يوم، إلى درجة شغلني علم الإحصاء، فذات يوم بلغ عدد المتسولين الأطفال خلال

ساعة من جلوسي في المقهى 60 طفلاً، أكبرهم في السابعة من عمره. الآن أتساءل: أيُّ ذعر فظيع تعايشنا معه طوال فترة شبابنا ودراستنا الجامعية؟! أيّ لوحة سريالية مُروّعة ومرعبة أن يجتمع طلاب جامعيون بعمر الورود في ساحة لينقادوا كالغنم إلى غرفة نعم للرئيس، بينما غرفة لا مقفَلة بالمفتاح، ولا أجد معنى لقفلها! لأنها حتى لو كانت مفتوحة فلن يجرؤ أحد أن يدخلها، وإن دخلها فسيكون مصيره السجن المؤبّد، وستهبط عليه تُهَمٌ مثل العمالة والخيانة...الخ. أيّ ذعر تعايشنا معه في أثناء دراستي الجامعية للطب البشري، حين اختفى فجأة أكثر من عشرة طلاب في سجون أقبية النظام، بحجّة انتمائهم لرابطة العمل الشيوعي، أو لحزب الإخوان المسلمين، ودفع أهاليهم رشاً ملايين الليرات لضبّاط ذوي رُتبٍ عالية في الدولة، فقط ليعرفوا هل أولادهم أحياء أم أموات؟! وأخبرني بعض هؤلاء الأصدقاء المسجونين أنهم (وهم في السجن) كان السجّان يُحضر لهم صندوقاً ليقترعوا للرئيس بتجديد البيعة، وبعضهم كان يقترع، لقناعة منه أنهم سيطلقون سراحه، لكنه كان يظل محبوساً! فالغاية الوحيدة من الاقتراع هي المزيد من الإذلال. وكيف أنسى أن أحد الأسئلة في فحص الشهادة الإعدادية في سوريا كلها وفي مادة التربية الوطنية كان: ما أقوال الرئيس حافظ الأسد في التدخين! ويومذاك صُعقت، ولم أكن أعرف أن له أقوالاً مقدسة في التدخين، بل كنت أقرأ آلاف اللافتات من أقواله: إنني أرى في الرياضة حياة! فأنظر حولي فلا أرى سوى سوريا كجثّة. وكيف أتجاهل نوع الثقافة والمحاضرات في سوريا، مثل (المرأة في فكر حافظ الأسد) أو (كيف نقول لا لأمريكا) أو الغزو والتطبيع الثقافي. هذا هو نوع الثقافة أو ما يُسمّى ثقافة في سوريا. ومن يُفهمني حل اللغز العجيب؟

ألقى العالم عارف دليلة محاضرته القيّمة العظيمة عن تطوير

الزراعة والصناعة في سوريا، في المركز الثقافي في اللاذقية، وكان لي شرف حضورها، وكان الواقفون فيها أكثر من الجالسين. كانت محاضرة مذهلة تعتمد على علم الإحصاء، وتقدّم خططاً بارعة في تطوير الزراعة وخاصة زراعة القطن في سوريا. وضجّت القاعة، حين انتهى من إلقائها، بالتصفيق الحار الصادق والحقيقي.

بعد أيام فوجئنا باعتقاله! ولأسباب لم تُعلَن، ولا نعرفها، واستمر اعتقاله سنوات، ترى ما التهمة التي اعتقل بسببها، وهو الذي منذ أيام فقط، كان يصفّق له أمين فرع حزب البعث في اللاذقية، والمحافظ، وقائد الشرطة، بعد انتهائه من محاضرته الهامة تلك. سوريا بلد الألغاز وربما من واجبي أن أطمئن الشعب السوري أنه لن يُصاب بالخرَف، لأن عقله دائم العمل والتفكير لحل ألغاز حياته! كلّ سوري يعرف سياسة قطع الكهرباء بتلك الطريقة، ولماذا أحياناً تُقطع لأيام وأحياناً لا تنقطع لأيام، والوزير المصون (وزير الكهرباء) وقف متغطرساً وخاطب الشعب السوري من خلال شاشة (الإخبارية السورية) بأن الكهرباء لن تعود للانقطاع، لأن الجيش السوري البطل حرر حقول النفط من سيطرة (داعش) المجرمة في دير الزور، لكن، وفيما هو يتكلم انقطعت الكهرباء، وعادت للانقطاع.

أتساءل بألم كبير: على أيّة قيمٍ يُبنى جيل سوريا الشاب (أطفالها وشبابها)، ولا يزال شبح (غرفة لا) يحكم عقولهم؟! ما زال في عقل كل طفل سوري وطفلة سورية، وفي عقل كل شاب سوري وشابة سورية (غرفة لا) موصدة، وفي داخلها أفاعٍ وعقارب سامّة وسجن تدمر، الأكثر وحشةً بين السجون، والذي سُجن فيه عشرات من أصدقائي، ومنهم ياسين الحاج صالح الذي تزاملنا في كلية الطب رغم أنه كان يدرس في جامعة حلب، لكن كان بيننا أصدقاء مشتركون. وكتابه

الرائع (بالخلاص يا شباب أو ستة عشر عاماً في السجون السورية)، أيه ثقافة تُزرع في عقول شبان سوريا وشابّاتها وهم يهجّون خارج وطن الموت، أو يموتون غرقاً في البحر، أو تحصدهم الصواريخ الروسية من الجيل الجديد والتي لا حدود لمداها. إحدى الشابات التقيتها منذ أيام وعمرها 26 سنة، بكت وقالت لي: نحن أكثر جيل تعرّض للظلم، لم يعد هنالك شباب سوريون للزواج، والعنوسة مفروضة علينا!

كلمة (لا) لا وجود لها في قاموس السوري. وغرفة لا.. موصدة في عقول معظم السوريين، وإلا فإن من يجرؤ وينظر إليها مجرد نظرة فقد ارتكب جرماً، لأنها أصلاً مُقفلة. الكل يجب أن يقول نعم. وحين أسمع هدير المظاهرات المؤيدة والحناجر تجعر بـ«نعم»، أتخيّل الراعي الجميل في بساتين «كَسَب»، حين كان يهشّ قطيع الماعز، وتصدح حناجرها بـ«ماع... ماع». ياه، كم تشبه «نعم... نعم»! النغمة ذاتها، بينما كلب الحراسة اليقظ يقوم بكتابة التقارير. وأجمل تقرير كتبه أحد الزملاء عني: برجوازية متعالية متعاطفة مع أحزاب يسارية.

الحمد لله، لا توجد إحصائيات دقيقة عن نسبة الجنون في سوريا. ولا يوجد فريق من الأطباء النفسانيين الذين ينوّرون عقولنا عن الآثار الكارثية لإغلاق باب (غرفة لا).

الثقافة في مواجهة الاستبداد

حين كنت في السنة الثالثة من دراسة الطب في جامعة تشرين في اللاذقية، عام 1980، لم يكن عددنا يزيد عن تسعين طالباً، كنا الدفعة الثانية في كلية الطب البشري، بجامعة اللاذقية، وقد اعتُقِل حوالي خمسة عشر طالباً من زملائنا في السنة الثالثة، بتهمة الانتماء لرابطة العمل الشيوعي، أو بتهمة الانتماء للإخوان المسلمين.

كنا نغنّي، في طريقنا إلى مصيف صافيتا، لزيارة برجها المشهور بعظمته وارتفاعه، ولم يخطر ببالنا أن عناصر من الأمن سوف يقتحمون الباص الذي يقلّنا إلى صافيتا، ليعتقلوا زملاءنا. تحوّل جو الرحلة إلى كابوس، وغاب أصدقاؤنا المعتقلون لسنوات طويلة في السجون. كنت أزور أهاليهم من حين إلى آخر لأستوضح أخبارهم، ولم يكن الأهل يعرفون شيئاً عن أولادهم رغم الرشا الباهظة التي كانوا يدفعونها لضباط الأمن، وكنت أتساءل طوال الوقت: لماذا لم أُعتقَل مثل رفاقي؟! فأنا لا أختلف عنهم، إذ كنّا نقرأ الكتب ذاتها، ونناقش الأفكار ذاتها، وكنت أشعر أنني مدينة لهم كما لو أنهم سُجنوا نيابة عني، وبعد أكثر من ثلاث أو أربع سنوات تمكّن أهالي كلٍّ من المعتقلين من معرفة هل ابنهم حيّ أم ميت، وفي أيّ سجن هو؟ وقد تنقّلوا بين

سجون عديدة، أخطرها وأفظعها سجن تدمر. وكنت أزور زوجات أصدقائي المعتقلين والعديد منهن كنّ حديثات الولادة، أي في مرحلة النفاس، وتعجبت أنهن لا يتلقّين الدعم النفسي والمعنوي والمادي من أسرهن وأقربائهن، بذريعة أن الزوج المعتقل هو المخطئ! فأيّ غبي يتجرأ أن يقاوم فكر القائد المفدى والقائد إلى الأبد؟! بعد أكثر من أربع سنوات مرّت على اعتقال أصدقائي، صارت زيارة زوجاتهم لهم مسموحة كل شهر مرة أو كلّ عدة أشهر مرة، وكنّ يصحبْنَ أطفالهنّ معهنّ، كي يتعرف السجين على ابنه، وكي يرى الطفل والده، من وراء شبك معدني. وكانت فترة الاعتقال تتراوح بين ثمانية إلى خمسة عشر عاماً، وسارعت للقائهم حال الإفراج عنهم، وصُعقت بأنهم خرجوا من المُعتقل وهم على درجة عالية جداً من الثقافة، حتى أن بعضهم ترجم كتباً صعبة وحديثة، مثل صديقي محمد حبيب، الذي ترجم رواية «العمى»، لجوزيه ساراماغو، ومثل صديقي حسّان عباس، الذي كان يقرأ في المعتقل ستّ عشرة ساعة، واعترف لي بأن كتاب (تحطيم العقل) قد أثّر فيه تأثيراً عميقاً، وكانوا يحصلون على الكتب بالرشا. وذهلت أن أياً منهم لم يكن منهاراً نفسياً، بل خرجوا من المعتقل محصّنين بمتانة نفسية عالية أعطتهم إياها الثقافة، واستأنفوا حيواتهم الاجتماعية والعائلية بهمّة عالية وشهية الرغبة بالحياة والتعويض عن سنوات السجن، وكانوا يحكون لنا قصصاً مرعبة، نكاد لا نستوعبها، كأن يضع السجان رجله على رقبة سجين مبطوحاً على الأرض في ساحة السجن، ويظل يضغط عليها حتى يفارق السجين الحياة، أو يصفون لنا حفلات الإعدام الجماعية التي تنفَّذ بين حين وآخر، وكيف كان المحكوم بالإعدام يترك أغراضه الشخصية البسيطة لزملائه، ويودّعهم واحداً واحداً. كانوا يحكون لنا عن طرق التعذيب التي تعرّضوا لها،

ومنها تعليق المعتقَل بيدَيه إلى خطّاف في السقف لأيام، فتتورّم رجلاه بطريقة مخيفة، ويصل كيس الصفن لديه حتى منتصف الفخذين بسبب التورم، ويحكون لنا أن عدة سجانين كانوا يبولون في الحساء الذي سيأكله المساجين، ومع ذلك لم ينهاروا، بل خرجوا محصّنين بالثقافة، الثقافة التي وحدها تقاوم الاستبداد مهما كان وحشياً. والعديد منهم (من هؤلاء المعتقلين السياسيين) أصبحوا من أهم الكتاب في عالمنا العربي، وتترجم مقالاتهم إلى لغات عديدة. والعجيب أننا، نحن الذين لم نُعتقل، وبقينا نمارس حياتنا في السجن الكبير، كنا نستمد القوة منهم، لم تكن قوتهم ومتانتهم النفسية ادّعاء ولا زيفاً، كانوا مؤمنين أن لا خلاص من الاستبداد سوى بالثقافة، فهي منعتهم من الانهيار النفسي، والصديق عبد الكريم ناصيف ترجم في سجنه رواية (1984) لجورج أورويل، وغيره أصدر كتباً حال خروجه من السجن، مثل ياسين الحاج صالح الذي كتب سيرته الذاتية في السجن (بالخلاص يا شباب أو ستة عشر عاماً في السجون السورية)! والصديق محمد سيد رصاص كتب العديد من الكتب البحثية والمقالات في أهم الصحف، والصديق حسان عباس الذي خرج من السجن وهو موسوعة ثقافية إذ كان يقرأ كل يوم ستّ عشرة ساعة مُتحدياً القضبان والسجان، ولا يُمكنني أن أذكر هنا زملائي المعتقلين جميعاً لأنني سأحتاج إلى صفحات، لكن ما يجمعهم جميعاً أن الثقافة كانت منقذاً لهم من الانهيار النفسي. وبعضهم استأنف حياته باحثاً ومترجماً، وبعضهم الآخر لجأ إلى مهنة حرة تؤمّن له ولأسرته العيش الكريم، وبعضهم غادر الوطن إلى بلد أوروبي، مثل المترجم المبدع محمد حبيب، الذي يعيش حالياً في النرويج ويعمل في الترجمة والتدريس، وقد ترجم عدة روايات لخالد الحسيني، الذي سُجن أخوه ثلاث سنوات لأنه لم يُبلغ عنه! تصوروا أن

يبلغ الأخ عن أخيه بأن لديه نشاطاً سياسياً. وكنت أحس بالخجل وأنا أزورهم وأستمد القوة منهم، وفي المرات التي كنت أستدعى فيها إلى فروع الأمن، كنت أستحضر وجوههم، فأنا سيجري استجوابي فقط وتهديدي بشكل مُبطن أو صريح؛ أما هم فقد تعرّضوا لتعذيب رهيب ومات بعضهم تحت التعذيب. وحين كان المحقق يقول لي: «يجب أن لا ننشر الغسيل الوسخ أمام القراء!»، كنت أحس بالغثيان، وأتمنى لو أقول لهم: الغسيل الوسخ هو أنتم. والكتابة تعني تحديداً نشر ما تسمّونه الغسيل الوسخ.

أصدقائي الرائعون حمَوا أنفسهم من الانهيار في السجون السورية، وتحمّلوا التعذيب الفظيع في السجون، خاصة في سجن تدمر، بواسطة الثقافة. الثقافة وحدها هي المخرز في عين الاستبداد.

الشهادة الثانوية في سوريا

ظاهرة تستحق الدراسة فعلاً، وتلقي ضوءاً على تدهور التعليم في سوريا، هي ظاهرة صفوف البكالوريا (أو الشهادة الثانوية) الخاوية في سوريا، فكل صفوف الشهادة الثانوية أو البكالوريا، في المدارس الرسمية، خاوية، ويعتمد معظم طلاب البكالوريا على الأساتذة الخصوصيين الذين يعطونهم دروساً خصوصية في بيوتهم. تتراوح أجرة الساعة الواحدة من الدرس الخصوصي بين 2000 إلى 3000 ليرة سورية، وللأستاذ الخصوصي مهمّتان، فهو يشرح الدرس للطالب، ثم هنالك حصص للتسميع، أي يقوم الأستاذ بتسميع الدرس للطالب، وإرشاده إلى الأسئلة المُحتملة في الامتحان النهائي. ويتحمل أهالي هؤلاء الطلاب أعباء مالية طائلة لا قدرة لهم على تحمّلها، إلا بالاشتراك في جمعيات شهرية مالية مع زملائهم، أو بأن يأخذوا قروضاً من المصرف، على أن تُحسَم أقساطها شهرياً من رواتبهم، أو بأن يبيعوا مُقتنياتٍ من بيوتهم. ولا تبالي وزارة التربية بهذه الظاهرة، ولا تُرسل مفتشين إلى المدارس ليعاينوا صفوف البكالوريا الخاوية، وحتى المفتشون، الذين يقومون بجولات دورية على المدارس، يغضّون النظر أو يرتشون، لغضّ النظر عن تلك الظاهرة المُعيبة واللا أخلاقية،

وهي انعدام التعليم في الشهادة الثانوية في المدارس، ولأن الفساد في سوريا حلقات مُتكاملة ومتلاحمة بقوة، فإن الدروس الخصوصية في المنزل للطالب لا تأخذ منحى تنويرياً ومعرفياً، ولا تحضّ الطالب على التفكير، بل تعتمد على التلقين، وعلى إرشاد الطالب إلى الطريقة التي يحصل فيها على أعلى العلامات في كل مادة. ولم أعد أتعجّب أن أجد طلاباً يحفظون صمّاً مسائل في الرياضيات والفيزياء والكيمياء، وتلك المسائل تتكرر غالباً في الامتحانات، ويحفظ الطالب المسائل دون أن يفقه منها شيئاً، ولا أنسى ما سرده لي أحد أساتذة اللغة الفرنسية وقد طُلب منه أن يعطي دروساً خصوصية لطالب بكالوريا، فقد سأله: هل تريد أن تتعلم الفرنسية، أم أن تحصل على العلامة الكاملة في فحص البكالوريا النهائي؟ وطبعاً كان جواب الطالب: الحصول على العلامة التامة في الفحص النهائي. فأعطاه الأستاذ حوالي أربعين ورقة، وطلب منه أن يحفظها صمّاً طوال العام الدراسي، وسيقوم الأستاذ، بعد ذلك، بمهمة تحفيظه تلك الأوراق التي تحوي على الأسئلة التي تتكرر في امتحانات الشهادة الثانوية في اللغة الفرنسية، وفعلاً حاز الطالب على العلامة التامة في الفحص النهائي للشهادة الثانوية، لكنه لا يفقه معنى كلمة فرنسية واحدة. هذا المثل ينطبق على كلّ المواد. كيف سنعدّ جيلاً للمستقبل ولبناء دولة وهو لا يعرف التفكير ولا البحث العلمي! ولا يختلف التعليم الجامعي عن التعليم في المدارس وخاصة التعليم في الشهادة الثانوية، إذ أذكر تماماً أن أستاذ الجراحة العصبية في كلية الطب حذف لنا ربع المُقرّر من مادة الجراحة العصبية، ويومذاك تساءلنا (نحن الطلاب): ماذا لو أتانا مريض في المستقبل بمرض من القسم المحذوف! كيف سنشخّصه؟ وكيف سنعالجه؟! ولم نتعلم في الجامعة أبداً نهج البحث العلمي، بل كان كلّ أستاذ يُملي علينا مادّته

على شكل نوطة (كتاب من تأليفه) علينا حفظها صماً وكما كتبها هو. وويل لمن اجتهد وأتى بمعلومات جديدة. والكارثة الكبرى كانت بإصدار قرار تعريب الطب وخاصة مادة التشريح، فمثلاً غضروفا الحنجرة، صار اسمهما: الغضروفان الطرجحاليان، ولم نجد في كل قواميس اللغة العربية معنى لكلمة طرجحالي! وكنا نحفظ هذه العبارات كما لو أننا نحفظ لغة صينية أو يابانية، فلم يكن لها أي مدلول. وأحب أن أذكر أنني طرحت تلك الفكرة أثناء الندوة التي أقيمت في الكويت، بمناسبة اليوبيل الذهبي لمجلة «العربي»، وكانت الندوة عن دور العرب في تطور العلوم وأهمية الترجمة، وسألت الأستاذ العلّامة في علم اللسانيات عبد الوهاب المسدي عن معنى كلمة غضروفان طرجحاليان، وما اشتقاقها! وأية غاية أن نحفظ كلمات لا مدلول لها في وعينا وذاكرتنا؟ وكان جوابه أن لا معنى لها على الإطلاق.

حلقات فساد التعليم مُروعة في سوريا، وهي تبدأ من مبدأ التلقين في المدرسة، الذي يتخذ شكله الأعظمي في الشهادة الثانوية ويستمر في الجامعة، والنتيجة إنتاج أجيال لا تعرف التفكير ولا البحث العلمي ولا اتخاذ قرارات، فكيف ستبني هذه الأجيال الأوطان وتتحمل مسؤولية القرارات؟!

وأحب أن أختم هذا الموضوع الموجع بأنه على مدى عدة سنوات في كلية الطب، كان أستاذاً اختصاصياً في علم الحيوان هو من يدرِّس مادة تشريح جسم الإنسان لطلاب الطب البشري.

الشهيدة زوجة الشهيد وأمّ الشهداء الثلاثة

بدايةً، أحبّ أن أعترف بأنني أحترم كلّ الآراء، مهما اختلفت عن آرائي، لأنني أحترم إنسانية الإنسان وحريته التي هي أغلى ما في الوجود. لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من استنكار ما كتبه أحدهم على صفحته على (الفيس بوك)، حين وضع صورة ورقة نعي لامرأة شهيدة وزوجها شهيد، وأبناؤها الثلاثة شهداء! والأهم كان تعليقه: كيف يموت وطنٌ هؤلاء أبناؤه! ووجدتني بآلية انعكاسية بحتة أعيد قراءة العبارة: كيف يعيش وطنٌ هؤلاء أبناؤه؟! شعرت ببساطة وأنا أقرأ تعليقه أنني أمشي بالمقلوب - أي على رأسي - وبأنّ المطلوب مني أن أنظر إلى الأسود وأقول رغماً عني إنه أبيض. لا أعرف أية آلية في التفكير تجعل شخصاً مثقفاً وحاملاً لشهادة عالية ومؤثراً اجتماعياً يعتبر أن الوطن يعيش من موت أبنائه! فالأم الثكلى مات أولادها الثلاثة في الجيش السوري، وحاز كلٌّ منهم على لقب الشهيد البطل، وربما قبلهم أو بعدهم استشهد زوجها أيضاً، ثم اكتملت «الحكاية» بموت الأم التي ورثت الشهادة ربما من أولادها وزوجها، كيف يمكن لحياة أن تُهزَم أكثر من هزيمة كهذه؟ وكيف يُمكن لموت أن ينتصر أكثر من انتصار كهذا؟! وكيف يُمكن للعقل أن يمارس فن الخداع على نفسه، فيحوّل

موت أسرة بأكملها، إلى حياة وطن؟! كما لو أن الوطن كائن (أو مفهوم) مستقلّ عن أبنائه؟! ذكّرتني صفحة ورقة النعي هذه بالصفحات الكاملة في الجرائد السورية الرسمية، خاصة جريدتَي «الثورة»، و«تشرين»، اللتين كانت كلٌّ منهما تفرد، كلّ عدة أيام، صفحة كاملة مُختنقة بصور الشهداء الأبطال في الجيش السوري (أحياناً أكثر من أربعين صورة في الصفحة!) وكان يُكتب بالأحمر العريض على تلك الصفحة الكابوسية الكارثية: كوكبة من أعراس الشهداء!!

يا سلام على هذا التعبير!

يُمكنني أن أتخيّل مجرّة سماويّة لمّاعة في سماء الليل البنفسجية الساحرة بكلمة (كوكبة)، أما أن أتأمل أكثر من أربعين صورة لشباب ماتوا رغماً عنهم ودون إرادتهم وأسمّيهم كوكبة، وأقرأ زغردات أهاليهم لموتهم، واعتزازهم بهذا الموت فداء للوطن! بل يشطح البعض إلى تمنّي الموت أو الشهادة لبقية أبنائه، فهذا أشبه بقصة الإمبراطور العاري الذي كان يسير بموكبه الفخم عارياً، لكن الذعر والخوف وحكم الاستبداد جعل كل الناس يتغزّلون بملابسه، ما عدا طفلاً صغيراً تجرّأ وجهر بالحقيقة: لكنّه عارٍ!

منطق التفكير هذا، هو السائد في الإعلام السوري بشكل عام، ولدى العديد من الأشخاص الذين يتبنّون هذا الرأي، ويُمجّدون الموت والشهادة، ويعتبرونها غاية الحياة وقيمتها، وهو ببساطة معادٍ لأبسط قواعد التفكير السليم الفطري والطبيعي لدى الإنسان –الطبيعي وغير المؤدلج –وهو حب الحياة وتقديسها، إذ غاية الحياة هي الحياة وليس الموت، ولا يُمكن للموت ولا بأي شكل من الأشكال أن يكون منتصراً.

أفهم أن يموت الإنسان في سبيل حريته والدفاع عن آرائه وحرية

تعبيره، فلا معنى لحياة دون حرية، لكن هذا المفهوم لا يمتُّ بصلة إلى موت المئات بل الآلاف من الشبان السوريين الذين يُزجّون في معركة لم يختاروها، والذين لم يستطيعوا الفرار -كما فعل مئات الآلاف غيرهم من الشبان السوريين - هاربين من الموت المُحتم.

إن ثقافة الإعلاء من قيمة الموت وتقديسه واعتباره نصراً وعرساً وغاية للحياة هي أكبر تزوير لحقيقة الحياة، ولرغبة كل إنسان أن يعيش ويُحب ويستمتع بأعظم متعة هي عيش الحياة، لكن الإعلام السوري ومن تأثروا به وتبنَّوا أفكاره يعتبرون الموت انتصاراً، بل واجباً على كل شاب. فكم من مرات شهدنا سيارات ضخمة تقف أمام مقهى من مقاهي الرصيف، ويهبط منها عناصر من الأمن أو الجيش، فيجمعون أكبر عددٍ من الشبّان المساكين، من روّاد المقهى، ليزجّوهم في معركة لا يريدونها! وكم من وابلٍ من الرصاص الاحتفالي تشهده سماء سوريا عشرات المرات يومياً ابتهاجاً بتشييع شاب سوري مات فتحوّل إلى الشهيد البطل، زخّات من الرصاص الاحتفالي تشهده سوريا كل يوم، وهي تحتفل بعرس الشهادة الذي هو عرس الموت، وربما لو حسبنا الكلفة المادية للرصاص الاحتفالي الذي يُطلَق غزيراً في الجوّ، في مناسبات سياسية عديدة أيضاً، لكان كافياً لإنشاء محطة توليد كهرباء تغمر سوريا كلها بنور الكهرباء، فتُريحنا من ساعات التقنين الكهربائي الطويلة، والمبالغ الطائلة التي ابتُلِي بها السوريون، لاضطرارهم إلى شراء مولّدات كهرباء منزلية، أو (لدّات - وهي شرائط كهربائية رفيعة ضوءُها يؤذي العيون).

كلّ شيءٍ يمكن تزويره ما عدا الحقّ، فالنفس البشرية مفطورة على الحق، ولا يمكن ولا تحت أية ذريعة فكرية أن نعتبر الشهيدة، زوجة

الشهيد وأمّ الشهداء الثلاثة، علامةً على حياة وطن! بل هي فضيحة مجلجلة لفشل عقلٍ ومنطق معادٍ للحياة، لأن غاية الحياة هي الحياة الحرة الكريمة الآمنة. ويستحيل أن يُبنى وطن على جثث أبنائه الذين تحولوا إلى أوراق نعي.

ببساطة، الإعلام السوري يطبّل ويزمّر لثقافة الموت، ويجعل من الموت غاية الحياة!

الماضي بطانة الحاضر

لا أتقصّد أن أستحضر الماضي، أي الأحداث التي عشتها مع شعبي السوري العظيم، لكنه يتمتع بقوة ذاتية تجعله يقفز من ذاكرتي ساعة يشاء ويضعني أمام أحداث ترسخت كالوشم في ذاكرتي، ويستحيل محوها، مهما أوحيت لنفسي بأنني تحررتُ من تأثيرها. ربع قرن قضيته موظفة في مشفى حكومي، هو المشفى الوطني الذي يمكن اعتباره عيّنة من سوريا، خاصة أن أكثر من يقصده هم أبناء الطبقة الفقيرة والمتوسطة، والمشفى أيضاً متعاقد مع العديد من الشركات والمؤسسات الحكومية، كمؤسسة الغزل والنسيج ومؤسسة المرفأ، ومؤسسة التبغ، ومؤسسة الإسكان الخ. وتجري معالجة الموظفين فيها مجاناً في المشفى الوطني، لكن شركاتهم تدفع مبلغاً معيّناً للمشفى وللطبيب (بحسب تسعيرة تحدّدها وزارة الصحة)، وهذا ما يُسمّى عيادات القطاع العام. وأن أستخلص عبرة من خلال عملي ربع قرن في المشفى الوطني كطبيبة عيون، يعني تماماً أنني أقيّم حياتي في اللاذقية، فالعمل أكبر محكّ ومؤشّر لطبيعة الحياة. وأجدني الآن لا أستطيع فهم الحاضر السوري، ولا التفاعل معه، إلا على خلفية هذا الماضي، فحين أتأمل مجازر حلب، أجد صوراً من الماضي تقفز فجأة أمامي، صورنا

نحن الأطباء والممرضات وكل العاملين في المشفى الوطني نقف في رتل كالقطيع، وبيد كلٍّ منا زهرة من ورق ملون (شكلنا كالمهرّجين)، وعلى يميننا ويسارنا عدد من الزملاء الذين يقومون بكتابة أسماء الهاربين من المسيرة الجماهيرية العظيمة التي ينطلق المشاركون فيها من كل مؤسسات الدولة، وبضمنها طبعاً المشفى الوطني، أصلاً في يوم «المسيرة التاريخية» (كما يحلو للإعلام السوري وصفها) تُمنَع الإجازات، حتى الإجازات المرضية، أي إذا كان الموظف على حافة الموت من المرض، فلا شيء يشفع له، وعليه أن يحمل الزهرة الاصطناعية ويسير في المسيرة الجماهيرية، وتلتقي أرتال العاملين في كل مؤسسات الدولة المشاركة في ساحة كبيرة هي ساحة البلدية، وهناك تصدح الحناجر بصوت كالجعير، بخطابات طنانة ومنافقة ولغة خشبية اعتدنا عليها، ولا أنسى أبداً ذلك المريض العجوز الفقير والمسكين الذي كنت قد أعطيته موعداً لإجراء عملية الماء الزرقاء (ساد شيخي)، وقد وصل مبكراً رغم أنه يسكن في قرية بعيدة، وكنت قد طلبت كالعادة من الممرضات أن يزرقنَه وريدياً بالإبر المنومة والمهدئة استعداداً للعملية، وكان المريض العجوز شبه مخدّر ومستلقياً على سرير العمليات، وهممت بتعقيم يدي لإجراء العملية، حين أتتني الأوامر بإيقاف كلّ شيء، لأن إدارة المشفى قررت إعادة المسيرة التي شاركنا فيها قبل يوم، بسبب الأمطار التي شوشت التصوير، ولم يجرؤ أحد أن يسخر حتى من صباغ الوردة الاصطناعية الذي أذابه المطر على يديه وتلوثت ثيابه، يومذاك غضبت واتصلت بمدير المشفى وقلت له إن العجوز قد زُرق بـ(الفاليوم) وجاهز للجراحة، و(الفاليوم) مُخدِّر قوي جداً لا يجوز إعطاؤه بفترات متقاربة للمرضى، قال لي مدير المشفى بلهجة تهديدية: «اتركي المريض! ستجرين له العملية غداً»،

قلت له: لكن، قد يموت المريض إذا أعطيته غداً إبرة (فاليوم)، وعلى الأغلب لن يحتمل جسده النحيل وخاصة أن في سوابقه جلطة قلبية. وكانت النتيجة أن هُدِّدت بطريقة غير مباشرة، وأنني يجب أن أشارك في المسيرة الثانية، لأن الجو من حسن الحظ كان صحواً، ولا يهم أن هناك إنساناً ينتظر عملية جراحية في عينه وهو شبه مخدّر، ولا يهمّ أنه قد لا يحتمل التخدير في اليوم التالي، ويموت، فالولاء كل الولاء والتقديس كل التقديس للمسيرات الجماهيرية المؤيدة للنظام، وكانت المناسبة ذكرى ثورة الثامن من آذار! عدت إلى بيتي أحسّ بضيق نفَس حقيقي واختناق، فوجدتُ أهلي يتفرجون على المسيرة المؤيدة التي يبثها التلفزيون السوري، يومذاك أحسست أن شعار الحياة في سوريا هو سحق الكرامة، وفكرت بالمريض العجوز المسكين، ولم أجد إلا السخرية تخفّف من غضبي وألمي، فقلت: الحمد لله! لم يطلبوا منه أيضاً أن يشارك في المسيرة. الأمر ذاته تكرر معي، وكان أيضاً ثمة مريض نصف مُخدر ينتظرني في غرفة العمليات، وكنت أهمّ بالتوقيع الصباحي على دفتر الدوام، حين طلب مني مدير المشفى أن أرافق الرجل الجالس إلى يمينه، وهو عنصر من أمن الدولة للتحقيق، وقلت إن ثمة إنساناً ينتظرني في غرفة العمليات لأجري له عملية، ويمكن تأجيل التحقيق حتى نهاية العملية أو إلى اليوم التالي. فرفض رجل الأمن ونظر إلي مدير المشفى نظرة تعني: إياك ومخالفة الإرادة العليا! وفي غرفة بائسة تضم سريرين معدنيَّين قذرَين، ومُجنّدَين يلعبان طاولة الزهر، انتظرت أربع ساعات، حتى كادت تنهار أعصابي، وأخيراً طلب الضابط الذي سيحقق معي أن يقابلني، ولم أستطع أن أسيطر على انفعالي، فانفجرت به: ما الغاية أن تجعلني أنتظر أربع ساعات؟! فردّ باحتقار: نحن من يحقّ لنا هنا أن نسأل، ولست أنت! وبدأ يسألني عن

أسماء أصدقاء لي في أثناء دراسة الطب، وما إن كانوا من الإخوان المسلمين أو من رابطة العمل الشيوعي الخ. عدت من جلسة التحقيق وشعوري يتعزز بأن غاية العيش في سوريا أو ضريبتها هي سحق كرامة المواطن السوري. وكان الخوف من مجرد لفظ كلمة أمن كافياً لتتقصف الرُّكَب من الذعر، وفي المناسبات مثل ذكرى الحركة التصحيحية مثلاً، كان مدير الصحة وقائد الشرطة وكل المسؤولين المهمين في الدولة ينزلون إلى ساحة المشفى الوطني، مع مشاركة جماهيرية لكل الأطباء والعاملين في المشفى، وحتى مرضى القلبية والنساء حديثات الولادة، ويبدأ قارع الطبل العملاق الذي يبلغ قطره أكثر من ثلاثة أمتار بالقرع، بطريقة تهتزّ لها الجدران، والكل يرقص ما سمّته (يونغ تشانغ) في روايتها العظيمة «بجعات برّيّة»: رقصات الولاء الإلزامية! لأن الرقص الهستيري بتلك الطريقة يحوِّل الرجال إلى بهاليل، ويومئذٍ تساءلت: إذا كان المرضى بقلوبهم، الذين من الخطورة أن يمشوا بضع خطوات، يدبكون رقصات الولاء الإلزامية، فما الذي يبقيهم في المشفى؟! ويومئذٍ أيضاً هدّدني أحد الأطباء الزملاء بأن يكتب بي تقريراً أمنياً.

أما الأدهى برأيي فهو الفساد المريع في مؤسسات القطاع العام، فقد كان مدير مؤسسة النسيج مثلاً يُجبر العاملين عنده، الذين يحتاجون إلى فحوص طبية أو عمليات في المشفى الوطني، أن يراجعوا رغماً عنهم طبيباً مُعيناً على مبدأ (فيد واستفيد)! وكان أحد الأطباء يقبض شهرياً من مؤسسة النسيج وحدها حوالي ستين ألف ليرة سورية (آنذاك كان الدولار بـ46 ليرة سورية)، لأن مدير مؤسسة النسيج صديقه، ولأن ضابط أمن عالي المستوى يدعم الاثنين. ولم يستطع أحد أن يوقف مهزلة المهازل، فحين قررت الدولة أن على كل مواطن، خاصة إن كان سيسافر أو سيستخرج جواز سفر، أن يجري فحص الإيدز، وكان طبيب

في حلب مسؤول عن عشرات الألوف من العاملين في مؤسسات في حلب، والمنطقي أن يُجرى فحص الإيدز في حلب. لكن قراراً من فوق (أي من أعلى سلطة فساد) أجبر كل العاملين في حلب أن يجروا فحص الإيدز في مخبر واحد معيّن في دمشق. وكانت الباصات تغص كل يوم بالعاملين الحلبيين الذين يهدرون ساعات من وقتهم ليصلوا إلى دمشق ويجروا فحص الإيدز، ثم يعودون إلى حلب. تنوع أشكال الذل وسحق الكرامة هذا كان ولا يزال عنوان عيشنا في اللاذقية، اللاذقية عروسة الساحل كانت أيضاً عشيقة المُشبّحين، أولاد المسؤولين الكبار الذين كانوا يقودون السيارات الشبح (أفخم أنواع المرسيدس) ليذلّوا الناس، وكان أحدهم يتباهى بأنه يستطيع أن يأمر رجالاً كهولاً يجلسون في مقهى بأن ينبطحوا أرضاً ويقوم بإفراغ الرصاص عشوائياً من مسدسه وهو يضحك بصفاقة وجنون، وكان هو نفسه سبباً في أن عدة عائلات هربت ذات ليل خارج سوريا، لأنه أراد رغماً عن الأهل أن يجعل بناتهم عشيقاته، والأستاذ الشهير الذي اختفى لمدة سنة ولم يعرف أحد من خطفه، حتى ظن أهله أنه مات، عاد بعد عام وهو شبه أخرس، وحلفت لي زوجته بأولادها إنه لم يقل لها من خطفه، لكن الكل كان يهمس بأن الذي خطفه هم عناصر من سرايا الدفاع منفّذين أوامر أسيادهم. ولم يكن يسمح لأحد بأن يسأله أين وكيف قضى هذه السنة! وهل هو بحاجة إلى علاج ودعم نفسي أم لا؟!

الخوف والذل والقهر هي عناوين العيش في سوريا، وهل ينسى أحد من العاملين في المشفى الوطني يوم حضر فريق من عناصر الأمن، وشحط طبيباً اختصاصياً بالجراحة العظمية من غرفة العمليات وهو بثياب العمليات، إذ لم يسمحوا له بأن يلبس ملابسه، وكان يلبس جزمة العمليات البيضاء الملوثة بالدم، وجرّوه إلى سيارة وقادوه إلى

المعتقل وبقي أربع سنوات. الكل تفرج على هذا المنظر بعيون خرساء وشفاه ألصقها الخوف بأقوى لاصق في العالم: الخوف. ومن ينسى شكل الثقافة في سوريا من نوع محاضرات: التطبيع والغزو الثقافي، أو كيف نقول لا لأمريكا، أو الحرية في سوريا (ويومذاك استفزّني العنوان وحضرت المحاضرة التي شارك فيها شلة من الكتاب المطبّلين للنظام، وقالوا بأن أكبر دليل على الحرية في سوريا أن أحداً من الكتّاب أو الصحفيين لم يُغتَل!)، أو محاضرة بعنوان (المرأة في فكر حافظ الأسد)، وبالمناسبة في إحدى دورات فحص الشهادة الإعدادية في سوريا كان أحد الأسئلة للطلاب: ما أقوال السيد الرئيس حافظ الأسد بالتدخين؟ وهو الذي قال أيضاً: إنني أرى في الرياضة حياة. وقال أيضاً إن السكوت عن الخطأ مشاركة فيه. وهي الجملة التي أحتمي بها وأتشبث بها بأظافري وأسناني، ولو أمكنني برموش عيوني. هذا هو بعض الماضي الذي يبطّن مسلخ حلب اليوم، والبراميل المتفجرة التي تسقط في سوريا كلها. هذه هي الخلفية التي عشنا ولا نزال نعيش فيها. وأخيراً اعذروني أن أستعمل كلمة الرئيس الأب: السكوت عن الخطأ مشاركة فيه. وأنا لا أريد أن أشارك في الخطأ. وكل ما يحصل اليوم مبطّن بالماضي الذي لا يزال يمدّ أمراضه من ذلٍّ وخوف وقهر، كأذرع الأخطبوط في حياة السوريين.

الهابطون بالمظلات والقضاء في سورية

قد يبدو العنوان غريباً وفذلكة كلامية، لكنني حين أتأمل نصف قرن من الحياة في سوريا، يتوقف ذهني عند موضوعين بالغَي الأهمية، كانا سبب الفساد وانهيار القيم في سوريا، وخاصة فساد التعليم والقضاء، وقد يبدو للوهلة الأولى أن لا رابط بينهما، لكنهما في حقيقة الأمر أشبه بنبتتين مزروعتين في تربة واحدة هي تربة الفساد بأعلى درجاته. فالحياة لا تتجزأ، وهي أشبه بجسم الإنسان حين يمرض عضو يختل الجسم كله. وفي بداية الثمانينيات بدأت أفواجٌ من الطلبة الذين لم ينالوا مجموع علامات جيداً في الشهادة الثانوية، بل كان نجاحهم عند الحد الأدنى، يدخلون كليات الطب والهندسة والصيدلة، لمجرد أنهم من منظمة شبيبة الثورة وخضعوا لتدريبات عسكرية وهبطوا بالمظلات، كما لو أن الهبوط بالمظلة إنجازٌ بطوليّ يستحق صاحبه أن يختار الاختصاص الذي يريده في الجامعة، حتى لو لم يكن مؤهلاً لذلك! وكان هؤلاء الهابطون بالمظلات يسرقون فرص غيرهم من الطلاب المجتهدين والحاصلين على مجموع عالٍ في الشهادة الثانوية، ومعظم هؤلاء كانوا ينجحون بالواسطة، ويترفعون من سنة إلى أخرى ويتخرج معظمهم جامعيين أميين ولا يفقهون شيئاً، وكي يزيد الطين بللاً -كما

يُقال – كانوا يقنصون ويحصلون على منح دراسية خاصة في روسيا ورومانيا حيث إمكانية النجاح والحصول على شهادة بالواسطة كبيرة جداً. والبعض من الهابطين بالمظلات كانوا ينسحبون من دراسة الطب عارفين أنهم غير أهل لها. والأهم أن هؤلاء حين عادوا من رومانيا وروسيا، عُيِّنوا أساتذة جامعيين، فصار التعليم يتدهور، حتى أن أحد الأطباء البيطريين كان يُدرّس مادة التشريح في كلية الطب البشري. ومن يُلقي نظرة بانورامية على حال التعليم الجامعي في سوريا، ويسأل الطلاب لماذا لا تحضرون المحاضرات، بل تقضون وقتكم في كافتيريا الجامعة؟ يدرك أن السبب الرئيسي هو أن معظم هؤلاء الأساتذة غير أكفاء. وبمقابل فساد التعليم يقابلنا فساد القضاء، ولا أنسى عبارة قالها لي أحد أهم المحامين: من يدفع أكثر يربح الدعوى! وهو نفسه يعترف أن لا دعوى يمكن أن تُنجز من دون دفع رشوة للقاضي، وأنه في نهاية كل شهر يجتمع القضاة في مكتبه الفخم، ويبدأ بتوزيع المال الوفير عليهم كل حسب الخدمة التي قدّمها، ليس لخدمة صاحب الحق والمظلوم، بل خدمةً لمن يدفع أكثر. حتى أن فساد القضاء في سوريا تحول إلى ما يشبه القانون العام. وبلغ الفساد أوجه بعد قيام الثورة السورية وحملة الاعتقالات لناشطين فيسبوكيين أو لنشطاء آخرين، خاصة أن الأهل لا يعرفون أين هو ابنهم؟ ولا أية جهة اعتقلته؟ ولا ما هي تهمته تحديداً؟ وصاروا يدفعون مبالغ طائلة تتجاوز أحياناً الملايين، لمحامين أشبه بالمقاولين واللصوص الأنيقين، ليعرفوا فقط أخبار أولادهم، والغريب أن دراما رمضان السورية لهذا العام عرضت هذه الظاهرة، وناقشتها في مسلسل «الندم»، كما لو أن عرض ظاهرة المعتقلين وطرحها في مسلسل سوري يُبرِّئ الجهات التي تعتقل! وكانت تلك المعالجة الدرامية ناقصة وأشبه بتنفيس غضب الناس، وتحولت أحاديث الناس

إلى شبه مبارزة بين قصص المعتقلين، وكم دفع ذووهم من مال، لمحامين نصّابين يوزعون الملايين على شركائهم في أجهزة الأمن، وكانت التهم خُلّبية وغامضة، كاتهام بعض الأطباء الذين يعملون في مجال الإغاثة وتوزيع المعونات على الأسر النازحة – ومعظمهم من النساء المعدمات من الفقر والأطفال – بأنهم يعطون المساعدات لأسر وعائلات يحارب رجالها، وكذلك أزواج النساء المُعدمات من الفقر، في جبهة النصرة أو تنظيم القاعدة أو في جهات متطرفة وأصولية، كما لو أن مهمة الطبيب أن يتقصى عن خلفية الأطفال السوريين الجياع وأمهاتهم، الذين ينتظرون ساعات طويلة أمام مراكز الإغاثة، كما لو أن مهمة الطبيب أن يكون مزدوج الوظيفة: رجل مخابرات أولاً ثم طبيباً! وأن عليه قبل أن يُسعف الجريح النازف أو يُقدم مساعدة لمُحتاج أن يسأل: أين الأب؟ وماذا يعمل؟ وهل ينتمي لتنظيمات متطرفة أم هو خارج البلد؟ أم قتل في وطن القتل اليومي سوريا؟ ولا أنسى اعتقال أحد الأطباء، وكان رئيساً لجمعية خيرية، وهي جمعية تضم أفقر الفقراء والعجائز المُهملين، واعتقل لأشهر فخسر أكثر من 20 كغ من وزنه، بتهمة أنه يوزع مساعدات لأسر ينتمي رجالها للتنظيمات المتطرفة، وأثناء إدارته للجمعية الخيرية، كان ممنوعاً أن تُجمع التبرعات للجمعية في الجامع، وبعد اعتقال الطبيب وتعيين آخر بدلاً منه، وكان واحداً (من عظام رقبة النظام) أصبح مسموحاً جمع التبرعات في الجامع! إلى متى سنبقى خائفين ومُروّعين من ذكر تلك الحقائق؟ إلى متى سوف أسمع العبارة ذاتها من معتقلين قضوا أكثر من خمسة عشر عاماً في السجن في بداية التسعينيات والثمانينيات، ولا يجرؤون حتى الآن على كتابة تجربتهم لأنهم لا يزالون يعيشون في سوريا؟! متى ستتفجر حناجر هؤلاء بتجاربهم وسنوات سجنهم الطويل؟ ومتى

سيحلّ الوقت المناسب؟ وهل أمامهم غير خيارين لا ثالث لهما، فإما أن يخرجوا خارج سوريا وتصدح حناجرهم بالحقّ ويرووا تجاربهم في السجن، أو يبقوا في سوريا صامتين منتظرين اللحظة المناسبة التي قد يموتون ولا تأتي! متى سيدرك العالم كله أن كلمة الحق والحرية لما تنطلق من الحناجر يستحيل إسكاتها، وأنها تشبه قطرة الماء التي، مع الزمن، ونقطة تلو نقطة، وعلى مدى سنوات من الإصرار، تتمكّن من تفتيت الصخر.

الهابطون بالمظلات، الذين استلموا أعلى المناصب في سوريا، وفسادُ القضاء، هما وجهان لعملة واحدة. ولم يعد أحد قادراً على تمويه الحقائق، حتى لو خُصِّصت الملايين لتقديم دراما سورية جذابة تلامس الحقائق، دون أن تُغيّر شيئاً على أرض الواقع: حقيقة المعتقلين والابتزاز الذي يخضع له أهلهم.

غاية الحياة هي الحرية، وكلّ ثمنٍ يهون من أجلها، حتى الحياة!

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»:

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفييه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.
12. إكثار القليل، دارا عبد الله.

بدعم من المنظمة الأورو ـ متوسطية لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان:

13. رسائل من سورية، وجدان ناصيف.
14. يوميات وقصائد، علي جازو.
15. انسَ دمشق، عمر يوسف سليمان.

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

16. ما تبقّى من حياة، سهى زكريا.
17. لا تغمض عينيك!، د. حسّان عبّاس.
18. الدرب مسامير، منار سهران شلهوب.
19. قنديل أم هاشم المفقود، عدي الزعبي.
20. الموت كما لو كان خردة، وداد نبي.
21. مذ لم أمت، رامي العاشق.
22. كأنها قيامة، محمد صدّيق عثمان.
23. خالي الذي في قبضتهم، ملاذ الزعبي.
24. مغلقة بسبب الإصلاحات، منذر مصري.
25. منازل الأوطان، نجاة عبد الصمد.
26. كأننا لم نكن هنا، بشّار يوسف.
27. أن تكون إنساناً، هيفاء بيطار.